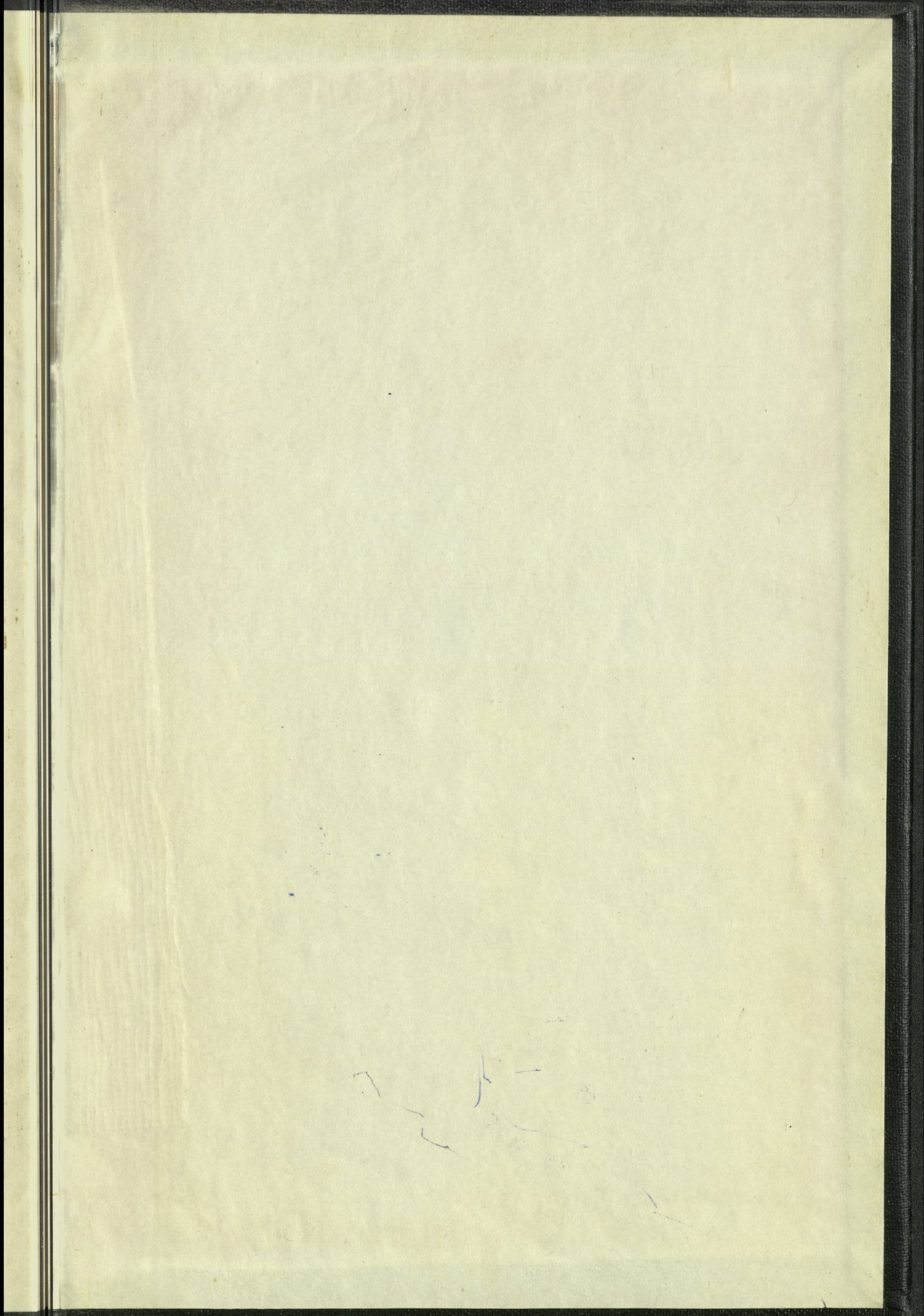
الثائرون في التاريخ

٣

زيد وورقة




JAFET LIB.
JAN 2016
Circulation Dept. 4

الثائرون في التاريخ

تاليف: دار الحكمة

- باشراف -

علي ناصر الدين

زيد وورقه

- الحلقة الثالثة -





صبي يكره الوثنية

في مكة ، بلد الرسول الأعظم ، ولد زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي . وكان مولده ، على التقريب في الربع الأول من القرن السابق للهجرة ، في بيت عريق من بيوتات العرب ، لأبوين ثريين ، لهما مكانة . وفيهما شيء من علم ومن معرفة .

وفي شعاب مكة وبطاحها نشأ وترعرع . وتحت سمائها الصافية الواجمة ، درج تفكيره الطفل ، نحو أشياء أحسها ، إحساس القلة الملهمين ؛ وحنّ اليها حنين الناظر الى مورقة خضراء ، حين تصفعه الصحراء المرمضة بحرّ اللهب وجفافه ، فينتفض لها كارها ، ومتشوقاً الى البعيد ، البعيد ..

وما هذه الاشياء ، إلا الرحمة بالجائعين والشفقة على المضطهدين المعذبين ، وإلا حق « البنت » في الحياة ، كباقي الخلق ، من ناس ، ومن بهيمة ايضاً ... وكان يرتفع بهذا الاحساس - وهو غير عامد - الى حالة يخيل اليه معها ان افقاً رحباً عميقاً ينبسط امامه ، يحمله على البحث فيه عن هذه القوة التي يلح عليه تفكيره العفوي ، في وجوب

وجودها . عن خالق ، غير هذه الاصنام الجامدة البغيضة التافهة ، التي يسجد لها اهل مكة وغيرهم من بني قومه . عن معتقد يليق بالانسان ؛ معتقد ثابت في اله ثابت ، متفرد بالقدرة والعدل والرحمة ؛ معتَقَد لا يتبدل في جوهره من جيل الى جيل ؛ لان منبثق هذا المعتقد لا يتبدل ، ولان الايمان به ، تطمئن الروح الى ما في طاقته من نور يغذي ما في نفسه من شوق الى محو هذه الظلمات ، في حياة مكة ، وكانما هي ظلمات العدم .

وما كرهت نفس أكثر مـــا كرهت نفسه – قبل الإسلام – ، تلك العادات والسنن الباردة الجامدة السخيفة ، التي درج عليها قومه وأهل عشيرته ، وتلك الاباطيل والمخازي والمساخر ، التي جمعت كلها ، وأُفرغت في كلمة واحدة ، هي : « **الوثنية** » .

كان زيد في صباه ، يرى عبادة قومـه للاوثان ، فتثور نفسه عليها ، وتضطرب امام ناظريه خطوط هـذه العبادة العارية عن كل حكمة ، وعن كل مغزى ؛ فيطوي عليها جناحي قلبه ، عمداً ، لعله يحس لها دفئاً ، أو يشعر نحوها ببعض الطمأنينة ؛ ولكن سرعان ما يشعر ببلادة الجماد ؛ وبرودته بين جنبيه المحمومين ، ويعود الى نفسه نفوراً من الاوثان

حاقداً عليها ، متأملاً في حدود ما يتسع له عمره ، وهو بعد صبي !

وكانت الفلوات والاودية والجبال تستهويه ، اكثر مما يستهويه منظر هبل ، واللات والعزى ومناة ؛ على انه كان يدخل في بعض الاحيان ، الى الكعبة ، فيمكث فيها طويلاً ينقل نظره هنا وهناك ، ويتأمل عميقاً في هذه الاصنام الجامدة القبيحة مرفوعة على دِكاك ، والناس دونها سجوداً او ركوعاً ، يسألونها الرزق والبركة والخير ؛ وهم هم ناحتوها وصانعوها . فيعجب لهم ، والعجب بداية شك ، كيف يتضاءلون ، في رغبة وفي رضى ، أمام حجر يدين لهم بوجوده ، وبالهيئة التي هو عليها ، وبالمكان الذي نصب فيه ؛ بعد ان ادمى اصابعهم في نحته واحتلب العرق من جلودهم غزيراً .

وينفر من الكعبة متلمساً امراً في مجالس الكهان والحكماء من اهل زمانه ، في رغبة مجنحة وشوق كثير ، لعله يجد عندهم تفسيراً لما يشعر به ويحسه ؛ فيكون نصيبه الطرد ، في رفق حيناً ، وفي عنف احيانا كثيرة . ويلوذ بالبكاء احيانا ، ثورة في غير قدرة ؛ واحيانا يلعن الكهان ، ينتهم

استضعافهم اياه ، والحكماء واستخفافهم بصبي ينشد المعرفة التي يرجو ان تكون في افواههم .

ويتحدث الى اترابه ، حديث هازيء بما يعبد آباؤهم ، فينكرون من أمره ، ويشكونه ؛ فيكون جزاؤه التعنيف او الضرب . فلا يزيده هذا غير إمعـــان في السعي الى استشفاف حقيقة ، يحسها قريبة منه ، شديدة الالتصاق به ، ولكنه ، عجباً ، لا يراها ! ويعجب من نفسه ويتـــألم كيف يفوته ان يراها !!

ويلجأ الى الوحدة والتفكير . فلا يزيده هذا غير تيه في أفق رحيب ، كوجه السماء لا يدري اين هو منه !!

ويرفض ان يأكل ما ذبح للاوثان ، محدثاً نفسه بان ما ذبح على اسم الصنم ، لا يليـــق بانسان يحس في نفسه كراهية لهذه الاصنام ، واحتقاراً ، ان يأكل منه .

ذلك هو الصبي زيد في نفسه الزكية ، المتعالية ، وفي تفكيره العفوي البريء ، وما فيه من بذور ثورية .

وقد جاز زيد عمر الورد ، ناقماً من البيئة التي يعيش فيها ، هذه التقاليد والعادات ، لا تمت الى الفكر النير ، والروح الانسانية الرفيعة باي سبب ؛ يزيد في نقمته انه ليس بمدرك

كيف يمحو هذه التقاليد والعادات ، ولا بقادر على ان يمحوها .

واستقبل الشباب بوقـــار مبكر ، فمشى مشياً بطيء الخطى ، كأنما كان يقتصد في سرعة قدميه ، ليزيـد من السرعة ، في نشاط عقله .

وقد شفع له الشباب عند الكهان والحكماء ، فاستقبلوه واوسعوا له بينهم . فاستمع اليهم وأطال . واخـــذ من علمهم ما اتفق ان يبدو له انه صحيح ، او كالصحيح . وجادلهم في بعض ما يقولون ويعتقدون ، فأثار في نفوسهم الف سؤال وسؤال . وحدث بعضهم ان الشاب نبيه ، حاد الفؤاد ، عميق الفكر ؛ وشكا بعضهم من عنفه وقسوته وخياله . وقال آخرون إنه زنديق كافر !

وما كان زيد ليجد في أقوالهم ما يعيبه ، او يحمله على الاستخذاء لهم ، ولكنه وجد العيب في عنتهم ، وعمى نفوسهم وللكفر خير له من عبادة يتحدثون بها ، ويظهرون فضلها وهي في نظره ، وميزان عقـــله وفكره ، من اسخف العبادات ..

حس انساني صحيح

واتفق ان مر بزيد ، يوماً ، رجل يحمل طفلاً حديث رؤية النور ، فأدرك ان الطفل بنت يراد وأدها ، فأحس بين جنبيه ، ناراً تتقد ، فوجم لحظة ، مر فيها امام عينيه مصير هذه المسكينة البريئة . وبسرعة الفكر تجسد له هذا المصير ظلماً وحطة ، وقسوة وضيعة ، منقطعة النظير ، فثارت نفسه ، وتضرمت نار الاباء في صـــدره ، فركض خلف الوالد المتجهم الوجه المتحجر القلب ، وناداه بصوت فيه رجفـــة الغضب ؛ وفيه رقة الرأفة والحنو .

ووقف الرجل يصغي الى زيد يعرض عليه مالاً ، يقيه شر الحاجة ، إن هو عاد بابنته التعسة الى امهـا ، ويتعهد له بأن يجعل لها من ماله شيئاً كل عام ، يكفيها ، الى ان تكبر وتتزوج .

ونظر الوالد اليه مشدوهاً . ولعله ظن في عقل زيـد ونفسه . او لعله فكر بان زيداً يسخر منه ؛ فهو لم يعهد مثل هذه الاريحية في أحد من قبل ، من اجل بنت يراد وأدها . ولم يسمع بأن احداً افتدى بنتاً بمال ؛ فما البنت ! ما

الانثى من بني آدم ! ان المال في نظر القوم، اعلى قدراً واجدى عائدة من بنت، اذا ربيت مع الفقر قد يكون من امرها ما يشين.

وأقسم زيد بأبيه وشرفه ان ما يقوله صدق كله ، وانه لا يرجع عما تعهد له به ، ما عاش .

وطلب الرجل اليه ان يقسم باللات وهبل ، إن كان ما يقوله صدقاً ، كما يدعي .

ووجم زيد كانما أُخذ بمفاجأة ، وكبر عليه ان يقسم بالصنم ، يحتقره ، ويود لو يستطيع ، ان يحطمه ، ولكن الشفقة على المولود الضعيف ، قد عصرت قلبه ومشت في شرايينه ، واعصاب فكره ، ووجد نفسه ، مدفوعاً بهذه الشفقة ، على ان يقسم باللات والعزى وهبل ومناة ، واقسم! وما لبث طويلا حتى شعر ببرد السعادة وهنائها ، واطمأنت نفسه الى ان عمله كان ميمونا موفقاً ، بالرغم من اضطراره الى القسم باصنام يترفع حتى عن البصق في وجوهها الكالحة.

واقبل على قوم مجتمعين . فوقف فيهم يحدثهم بحرارة وايمان ، عن حق البنت في الحياة ، وجريمة وأدها التي لا وجه لها من حق او صواب . فما كان منهم الا ان تطلعوا اليه ، في استخفاف وازدراء ، دون ان يقولوا

شيئاً ؛ وكان الصمت ابلغ من الكلام ، في توكيد استخفافهم به وازدرائهم له . وما اشد ما كان من سخريتهم حين علموا انه افتدى بنتاً من الوأد ، وكفلها الى ان تكبر وتتزوج !

وغدا زيد بعد ذلك ، لا يسمع بخبر بنت ، يراد وأدها ، إلا ويهب الى افتدائها ، والدفاع عن حقها في الحياة . واشتهر امره هذا بين الناس ، فسخر منه بعضهم واكبره بعضهم ، وهم قليل .

ولكن الذين اكبروه في صدق ، وعرفان جميل ، وتوقد عاطفة ، هنّ الامهات اللواتي نعمن بردّ بناتهن اليهن ، وهنّ يشعرن بتدفق اللبن غزيراً من صدورهن في حنان أمومة ، كادت ، لو لا زيد ، ان لا تكون .

وراح زيد يدأب في استقصاء شأن البنات اللواتي يرجح في حسابه انهن معرضات للوأد قبل غيرهن ، فيتصل بوالد كل واحدة منهن ، يحاول ان يفتديها بمال ، حتى اذا لم يفلح ، عمد الى اقناع ابي البنت بتركها له ، يربيها في داره وبين اولاده ؛ ويتحمل بنفسه عبء تنشئتها ، وتزويجها بمن هو كفوء لها ؛ ولا ندري باي قلب رحيم ، كان هذا

الرجل النبيل يعيش ، ولا مدى رحابة ذلك القلب ، في القلوب . فلو انه كان يكفل الايتام فيربيهم ، ويحنو عليهم ، لقلنا ، لم يأت زيد في الامور طريفا ؛ فما اكثر الذين كانوا يكفلون الايتام ويعطفون عليهم ، ويتعهدونهم في حب ؛ ولكن الذين كانوا يكفلون ايتام العاطفة ، لا ايتام الوالدين ، لم يكن لهم من وجود ، فان وجدوا ، استنكر الناس امرهم وصنفوهم في المارقين .

وحسب زيد فخراً وسمواً انه مهد الطريق الى النفوس لقول الله تعالى : « **واذا الموؤدة سئلت ، بأي ذنب قتلت؟** »

رحلة في سبيل العلم

لم يجد زيد عند الكهان والحكماء ما كانت تتوق نفسه الى معرفته . ولم يلق عندهم غــير اشياء ، لا تتصل الا بالاوثان وعبادتها ، وبغير الجاهلية وقوانينها وآدابها ؛ فأقام زمناً على ألم نفسيّ عميق . وجعــل يقلب وجوه أمره ، ويتهيأ لما قد يتفق له من رأي . حتى عزم اخــيراً على الرحلة الى بلاد الشام ، حيث كانت اليهودية والنصرانيــة تجتاحان الوثنية بما لهما من جديد روعة في النفوس . وكان

تشوقه الى معرفة هذين الدينين ، أقوى من احتقاره للوثنية، في شتى مظاهرها وملابساتها الجافة الخرساء .

حتى اذا كانت ليلة وضحاها ، افتقد أهل مكة زيداً فلم يجدوه . وعرفوا انه رحل الى الشام ، باحثا عن عبادات اهلها ودياناتهم ، فارتابوا بفعله ، تكمن فيه ثورة على عبادتهم وأديانهم . وجعلوا يتسارّون في امره ، وما قد يكون له من عواقب . اما زيد فقد مضى لشأنه ، لا يفكر بأهل مكة إلا ليرثي لحالهم ويتألم من ضلالتهم ، حتى وصل الى بلاد الشام ، وقد زاد نفسه نصب الطريق ومشقة السفر ، ظمأ الى علم جديد ، ودين جديد .

واتصل بعلماء اليهودية ، فأقام بينهم وقتاً يستمع اليهم ويسألهم ، حتى بلغ كل ما عندهم ؛ ففارقهم وفي نفسه ان ليست اليهودية الدين الذي يطمح اليه قلبه ، وتطمئن اليه نفسه . ثم انتقل الى علماء النصرانية وكهانها ، ثم لم يلبث ان عقد العزم على الرجوع الى مكة ، ليعبد الله فيها على دين ابراهيم .

وما دين ابراهيم إلا عبادة الله الواحد ، خالق السماوات والارض ، أصل كل شيء ، واليه كل شيء .

المجاهرة بالعداء للاوثان

عاد زيد الى مكة وفي نفسه ايمان جديد بدين ابراهيم،

وعلى شفته ذكر الله ، الذي خلق الارض والسماء وما بينها . وجعل يبشر بهذا الدين بين اصحابه ومعارفه في حرارة وصدق يقين ، على انه ادرك ان ما يبشر به من دين جديد ، لا يمكن ان يقوم في نفوس الناس ، ما لم يهيء له بتحطيم عقائدهم بالاوثان ، فتحتل العقيدة الجديدة ، الفراغ الذي يتركه تحطم تلك العقائد في النفوس ، فراح يجاهر بعدائه للاوثان ، ويقلل من قيمتها في نفوس العاكفين على عبادتها ، او تعظيمها وارتجائها ، ويصفها بالسوء ، الذي ما بعده سوء .

ودخل الكعبة يوماً واسند ظهره اليها وصاح : « يا معشر قريش . والذي نفسي بيده ما اصبح منكم احد على دين ابراهيم غيري . » وساد صمت ؛ وهو يسمع اصداء صوته تتجاوب بين جدران الكعبة . ثم أردف كلامه ببيت من الشعر ظل يدوي في آفاق عصره حتى الاسلام :

أربّاً واحداً ام الف ربٍ أدين اذا تقسمت الامورُ

وتلفت اليه القرشيون ذاهلين . ونظر بعضهم الى بعض . ومدوا ابصارهم الى اصنامهم ، كأنما يساورهم عليها شيء من الخوف . وهموا بالرد عليه ، ولكنّ شيئاً

احسوه ، ولم يفهموه ، -كان يطوف مع اصداء صوته، فيقرع اسماعهم ، - الجم افواههم ، فاذاهم لا ينطقون ...

وخرج زيد من الكعبة مرفوع الرأس . وعلى شفتيه ابتسامة تتداح فيها نفسه الثائرة . وعلى أنفه ظل شموخ وكبرياء : وهو يردد :

أربّاً واحداً ام الف ربٍ أدين اذا تقسمت الامور

كان زيد مؤمناً بالذي يعتقد ، قوي الايمان . يتحدث بما في قلبه بكل صدق وبكل اخلاص . وكانت الفاظه ، لمعة فكر ، ضراميتها في الحق ، يعتقد انه حق ، ونورها، النور الذي يرى فيه الطمأنينة التي ينشد . ما يخشى بعد هذا الذي سكنت اليه نفسه ، نقمة او بطشاً ، في نهاره او ليله . وراح في زحمة الضلالة والجهل ، على مركب من هدى ، ومن نور ، يضرب في صدر الجهل والضلالة ، في غير تردد ولا هوادة .

تألب قريش

إلا ان قريشاً نظرت الى زيد نظرة حذر وشك ؛ فقد جرح كبرياءها ان يتعرض فتى مثله لعقيدتها ، ولاصنامها

فيسفهها ، ويحاربها بما يسميه « دين ابراهيم » ، فحقدت عليه حقداً شديداً ، وتوعدته بالطرد وبالقتل ايضاً . وتشاور بعضهم في الامر فقرروا اخراجه من مكة ! وراحوا يدافعونـــه ، ويؤذونه ، حتى اضطر اخيراً ، الى الخروج من مكة سراً ، تحت جناح الليل .

ترك زيد كل شيء له في مكة ، في الوقت الذي اخذ معه كل شيء ...

ترك بيته وزوجه واولاده وثروته . واخذ معه الدين الذي آمن به ؛ دين ابراهيم . وما اشد ما كان يحب ان يتيسر له اخذ زوجه واولاده معه ، وما اعمق ما شعر به من الم نفس ، أن لم يتيسر له ذلك ، وهو من عرفت رقة عاطفة ورحمة قلب ، تجاه اطفال غيره ، فكيف به تجاه اطفاله !

وها هو في تغربه عن مسقط رأسه ، وموئل عشيرته ، لا يجد عزاء لنفسه ، في غير هذه التضحية العظيمة التي ضحى بها في سبيل عقيدته وايمانه . ويستمر حيث وُجد ، يدعو الناس الى دين ابراهيم ، منددا بعبادة الاصنام ، التي عليها قريش ، قبيلته وذووه .

فيلقى الأذية حيثما حل : وتضيق امام عينيه آفـــاق المستقبل ، فيحن الى صغاره ، واهل بيته ويذكر مكة ، وما له فيها من عشراء ، واقران ، ويشتد به هذا الحنين ويعمق ، فلا يستطيع له دفعاً ، ويقرر ان يغامر في العودة الى مكة ، ويعود ..

مكة في الظلام

عاد زيد الى مكة وفي نفسه فيض من شوق وحنين . على انه آثر ـ احتياطاً ـ ان يدخلها ليــلًا ، ليستطلع اخبار اعدائه الذين اخرجوه ، وما كان من شأنهم وشأن مكة من بعده .

وبدت لعينيه مكة غارقة في ظلمتين ، لا ظلمة واحدة . ظلمة الجهل ، الذي يتردى فيه عقل القرشي العنيد . وظلمـة الليل ، الذي أحاط بمكة وأطفأ في مقلتيها النور .

وكان زيد في الحالين سعيداً في عودتـــه الى مكة ، مبتهجاً ان سيلقى فيها من يُحب . وامّحى من قلبه في تلك اللحظة ، ما كان يشعر به من غضب على الذين اخرجوه ، ومن حقد .

اما كرهه للاوثان واستخفافه بها وسخريته منها ، وحقده عليها ، فقد خُيّل اليه ان هذا كله يزداد اضطراماً في نفسه.

دخل مكة غير مطمئن ، ولكن في غير خوف ، واسرع الخطى الى بيته ، فان في بيته صغاراً وكباراً ، أشعلوا في صدره نار الشوق ونار الحنين . وان فيه بناتاً كفلهن ورباهن فأحبهن . وأحببنه ، حبه لاولاده ، وحب اولاده له . فكثيراً ما كانت الواحدة منهن تخرج الى البادية ، حافية ، تسأل الركبان عنه .

وفي ظلمة الليل ، فاجأ المحب أحبابه . ومكة سادرة في ظلاميها الداجيين ...

الوثنية مدرسة للحقد والتعصب

لعل كلمة « سَماح » من اخصب الكلمات العربية ، بما تفيض به من معان فيها خير ونبل وانسانية ، وقد لا نغالي اذا نحن رأينا في هذه الكلمة ، قطباً ايجابياً للحضارة الانسانية المحسنة . ويدعو هذا الى الخاطر ، كلمة ليست اقل من كلمة « سماح » طاقة على التعبير ، ولكن في ناحية معاكسة تماماً ، وهي كلمة « حقد » التي يصح ان نرى فيها قطباً

سلبيا في حضارة العالم الملتوية ؛ الحضارة التي ينقصها القدرة على التعبير الصحيح ، عن الانسانية الحق . وهي بنت الوثنية في السياسة ، هذه الوثنية التي تخلق الحقد ، حكما . والوثنية ، ـ بما فيها من امارات واعمال جافة بليدة مؤذية ـ في الدين والسياسة ، مبعث كثير من الآفات الانسانية ، في مقدمتها الحقد ، والتعصب . ذلك ان كل ما لا ينبض بروح من عدل ، ولا يسمو بفكر من مثالية ، لا بد ان يضيق افقه عما فيه حب وتسامح وصفح .

وأهل مكة في حقدهم على زيد بن عمرو ، انما كانوا يستجيبون للوثنية المتمكنة في قلوبهم وفي رؤوسهم ، تضيق بكل ما هو غير حسي وغير ملموس .

والوثنية بالمعنى الديني ، لها توأم هي الوثنية ـ اذا صح التعبير ـ في السياسة ، كما قلنا ، إلا ان زيداً لم يكن صدره ليضيق عن امل في اصلاح قومه ، وفي تحويلهم عن وثنيتهم ، ذلك انه على حق ، وانه يحب لقومه ما يحبه لذاته ، وان الحق قوي بنفسه ؛ وهو ، اي الحق ، عدا ذلك ، عنصر يشير بقوة ووضوح الى انه وحده سيكون مصدراً لحل المشاكل العالمية ، وتفريج ما ينزل في مختلف الامم من ازمات .

ذاع امر زيد في الناس . وتحدث عنه القوم في مجتمعاتهم فمن مكبر له ومن حاقد عليه او ناقم . وسعى بعضهم الى لقائه والتحدث اليه . اما هو فكان يجلس الى الناس يكلمهم ويلقي الموعظة في آذانهم ، ممزوجة بايمان نفسه . فكان في حديثه يتدفق كالسيل الخيّر ، وكان في فكرته قويـــاً كالحق نفسه .

واصبحت حلقات مجلسه ، اينما حل ، حديث تساؤل ومثار اهتمام . وعاد الناس الى الاختلاف في أمره ، فقال بعضهم : ان الرجل حكيم موهوب . وقال آخرون : انه شاعر مخبول ، ولكن أحداً من الناس لم يستطع ان ينكر ما في حديث زيد من جرس مبعثه الثقة بالنفس ، وبالدين الذي يدعو اليه .

ولم يجد زيد خارج مكة : عند الأعراب ؛ ما يختلف عما وجده داخل مكة . فقد كان يشعر ، بالجمـــلة ، انه غريب عن هؤلاء واولئك ، بفكره وروحه وايمانه .

وكان لا يقيم حيناً في مكان إلا وآثر ان يتركه الى مكان آخر ، رغبة منه في زرع افكاره ونشر ايمانه دون ان يشعر بيأس . او بخور في عزيمته ..

كان يعيش فكرته بكل ما فيها من سمو . صابرا ، مؤملاً ، قوي الاعتقاد بحسن الخاتمة . ولم يكن شيء ليثنيه عن طريقه قيد أنملة . فهو فوق الجوع والعـذاب وكل متاعب الحياة الحسية . إنـه روح يعيش بخبز الاله الذي خلق السماء والأرض .

كان يقاوم كل اغراء عاطفي في نفسه ، إلا عاطفـة الحنين الى صغاره في مكة ، فهم - اي صغاره - ابـداً في عينيه زينة الحياة الدنيا ، وهم ايضاً في اذنيـه أنشودة البقاء . وموسيقاه الخالدة .

ويقف فجأة ليلوي نحو مكة رأسه ويقول : « سأدخل مكة بالرغم من قريش . »

وها هو يدخل في غـير وجل ... ولتقتله قريش اذا هي شاءت . إنه يؤمن بأن الله لن يتخلى عنه .

ويجنه الليل بـين صغار زغب راحوا يتمسحون به ويتحلقون حوله ، يسأله بعضهم ان يحط رحـاله بينهم الى الأبد . فيبكي زيد بكاء عالم بما في نفس هؤلاء الاطفـال من حاجة الى العطف ، عطف الأبوة الرحيمة .

ولكنه لا يترك لعاطفته أمرها كله ، ويشرك عقله فيما

وقعت فيه نفسه من حيرة ، فيكبر عليه ان تتغلب اية عاطفة دنيوية على الايمان بالله عنده . ويشعر بالحقد يزداد في نفسه ليس على قريش ، ولكن على معتقداتها التي كانت السبب في عذابه الكبير .

ويذهب الى اصدقائه يستطلع ما اصبحت عليه قريش . فيجد الامور اشد عسراً من ذي قبل . فكأنه كلما ازداد تمسكا بدينه ، ازدادت قريش تمسكا بدينها . وهيهات ان يلين هو ، او تلين قريش ..

ويعرف أهل مكة ان عدو الاصنام قد دخل مكة . فيرسل بعضهم رسلاً الى اهله ينذرونهم بقتله ان بقي في مكة .

ويسعى اليه بعض الشيوخ ، ممن قدروه ، ناصحين له ان لا يجاهر بعدائه للاصنام ، وان يتورع في حملته على عقائد قريش ... قريش التي اذا اجتمعت على أمر ، ما تفرقت عنه الا بتفرق رؤوس ابنائها عن ابدانهم .

ويسكت زيد ، سكوت الثورة ، لمّا تنفجر . ويبدو عليه شيء من الهدوء .. ولكنه الهدوء الذي ينذر بالعاصفة . ويتوهم ناصحوه انه استجاب لرغبتهم او كاد . ولكنه يقف فيهم ، بعد ان يجمع نفوسهم على الاستماع له ، ويفجأهم بحكمته

التي يعيشها بلحمه ودمه وروحه ، ويشرح لهم فضائل دين ابراهيم ، ولا ينسى ان يحقر الاصنام بكبرياء وأنفة .

ويخرج هؤلاء من لدن زيد مخذولين - وفي نفوسهم خوف منه - يسرعون الخطى خشية ان يؤثر فيهم منطقه الذي لا يدفعه منطق ، او أن يدخل الى قلوبهم دين ابراهيم ، فيلقون من قريش ما لا يحبون .

عيد قريش

اجتمعت قريش ذات يوم ، في عيد صنم من اصنامهم ، تعودوا ان يحتفلوا به احتفالاً كبيراً ، لما في نفوسهم من تعظيم لذلك الصنم ومن تفضيل له على غيره . واخذوا يذبحون على اسمه ، ويديرون به .

وكان القرشيون في فرحهم وجلبتهم ، غافلين عن كل شيء ، حتى عن اولئك الذين يبثون في الناس ثورتهم على الأصنام .

ان الباطل -- والباطل هنا الوثنية - كالضبُع تعيش في الظلام ، لا تعرف من أمر الشمس ، إلا انها عدو ، تكشف عن دروبها وتفضح جرائمها ، فلا يهمها من امرها إلا ان

تغيب ، ويعم الظلام .

وهذا كان شأن قريش ، وشأن زيد بن عمرو بن نفيل. لا يهمهم منه إلا ان يغيب عن مكة ، لتخلو مكة الى باطلها ، تمجده في الحجر ، تقيم له الصلوات .

وخارج مكة ، بعيداً عن ضوضاء العيد ، اجتمع اربعة نفر من قريش هم : ورقة بن نوفل بن عبـــد العزى ، وعبدالله بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن أسد بن العزى وزيد بن عمرو بن نفيل .

اجتمع هؤلاء على أمر خطير ، بعد ان أنكروا أمر قريش واصنامها .

قال بعضهم لبعض : تصادقوا . وليكتم بعضكم على بعض . وقال زيد بن عمرو : « تعلمون والله ما قومكم على شيء . لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم . مـــا حجر يطيفون به ؟ لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع !! يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فانكم والله ما انتم على شيء . »

وطوى كل منهم جناحي قلبـه على أمل . وتطلع الى البعيد .. يبحث عن دين يستقر فيه ايمانه بالله .

ثم اتفقوا على ان يتفرقوا في البلاد ، ويطلب كل منهم

ضالة ايمانه . وان يجتمعوا فيما بعـــد ، اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

اين الله ؟

ليست الثورة فقط ان تلجأ الى الحديد والنار توسع بها عدوك فتكا وتقتيلاً .

بل الثورة ايضاً ان تحاول زعزعة المفاهيم الخاطئة والعقائد الفاسدة ، ودك حصون الجهالة والتقاليد السيئة ، تحول دون القوم والتقدم الى حياة الحضارة المحسنة الهانئة ؛ وتجمّدهم في ظلمات من التراب بليدة قاسية جافة . ومن هنا كان زيد بن عمرو ثائراً .

وها هو الآن يواصل سيره ، بعد ان افترق عن رفاقه الأربعة كما مربك ، حتى يجوز بـلاد الشام الى العراق ، يسأل عن الكهان والعلماء .

ولقد ضرب زيد ، في رحلته هذه ، مثـلاً عظيما في التضحية من اجل طلب العلم . وكان شأن رفاقه الباقين ، ورقة وعثمان وعبدالله ، كشأنـه هو ، ارخصوا كل شيء عندهم ، وهان كل صعب لديهم ، في سبيل التعلم واكتشاف

ما ليس لهم به علم .

إنتهى عثمان بن أسد الى بيزنطية بلاد الروم ، واتصل بقيصر هناك ، واتبع النصرانية فحسنت منزلته عند قيصر ، وعاش بنعمى ما أصاب من دنيا ودين .

واما عبدالله بن جحش فقد اقام على ما هو عليه من الالتباس حتى ادركه الاسلام .

وكان من امر ورقة بن نوفل ان عاد الى مكة وبين يديه شيء من كتب النصرانية يأنس بها ، ويتعمق في درسها ، وفي تفهم فلسفتها .

واما زيد بن عمرو فلم يجد غير دين ابراهيم ، ديناً يملأ جوارح حسّه ويتسق مع عقله المتحرر .

وكان على شيء من حدة الطبع في الشباب ، يهمه ان يقطع باعتقاده ويجهر به ، باكثر ما يتيسر له من سرعة ومن توكيد . وهو بهذه الروح ينشد الحقيقة ، تطمئن اليها نفسه ، فينشرها في الناس بقوة واندفاع ، ولم يكن هذا بالامر اليسير ، في مثل البيئة التي وُلد فيها ودرج ، وترعرع واضطرب ؛ فيتوجه بروحه الى السماء ويخاطب ربه :

« اللهم لو اني اعلم اي الوجوه أحب اليك عبدتك به .

ولكني لا أعلمه . » ثم يسجد على راحتيه ، مستغفراً عن جهله . مستمداً من ربه العلم والهداية .

كبرياء تجرح

وفاجأ نفراً من قريش ذات يوم في الكعبة ، مجتمعين حول صنم من اصنامهم ، فوقف يردد هذه الابيات :

أرباً واحداً ام الف رب أدين اذا تقسمت الامور
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنما أدين وكان رباً لنا في الدهر اذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير

فخرج القوم اليه يريدون قتله ...

انه جرح كبرياءهم في الصميم . وحقَّر اصنامهم جهاراً وعلى مسمع منهم . وداس اقداسهم غير وجل ولا آبه .

ونجا منهم مخلفاً وراءه ذهولاً في أفكار الناس . وتساؤلاً لدى بعضهم في السر : « أصحيح ما يقول زيد ؟! »

ودب الالتباس الى نفس فريق من قريش غير قليل .

فنظروا الى الاصنام نظرة مستريب ، وشكوا في عبادتهم لها ، ولكنهم آثروا الكتمان .

ها قد اخذت ثورة زيد تعمل عملها وتهيء مكة — في غير معرفة منه — لامر عظيم ...

الخطاب يتولى تأديب زيد

كان الخطاب ، والد الخليفة عمر ، أخاً لزيد وعماً له في الوقت نفسه . وكان شيخاً من شيوخ قريش له مهابة وله مكانة . فلما سعى اليه الناس يشكون عنده ما كان من أمر زيد حيال الاصنام ، غضب وقام الى بيت زيد يطلبه .

واستقبله زيد باحترام كثير ، وهش له ، في حين اندفع الخطاب غاضباً يعنفه ويهينه .

ولم يحر جواباً على تعنيف الخطاب له ؛ بل جعل يستغفر له الله ، ويحمل نفسه على الصبر ، يحدوه على ذلك احترام لشيخوخة عمه الجليل .

وهدأت قريش لأن الخطاب تولى تأديب اخيه وابن عمه زيد .

الاقامة الجبرية

انتهى الخطاب ، بعد تفكير طويل ، الى فكرة خطيرة رأى ان في تحقيقها خير رادع لزيد عن استرساله في تحقير الوثنية . والتبشير بدين ابراهيم .

والفكرة هي ان يجبر زيداً على الاقامة خارج مكة ، يحرسه نفر من شبان قريش ، فتأمن بذلك قريش ثورته التي اقلقت أمنها واقضّت مضجعها .

ونفذت الفكرة فأحاط الخطاب ومعه نفر من الشبان ببيت زيد ثم ساقوه الى مكان منفرد ، حيث قام اولئك الشبان على حراسته .

واعتقد زيد اول الامر ان هذا النفي الذي فرضوه عليه ، سيشحذ عزيمته ويزيد ثورته إشتعالا . فمال الى الشبان يبذل لهم من علمه ، ويكشف لهم عن طريق الحق وجادة الصواب .

ولكنه وجد آذاناً قد اصمّها الشر والفسوق ، وعيوناً قد اعماها الجهل والفجور ؛ فخارت عزيمته. ذلك انه شعر ان لا سبيل الى التغلب على السفاهة الا بسفاهة مثلها! وانّى لزيد ان

يكون سفيها ، وهو يتخلق باخلاق الصادقين المؤمنين ، ويدعو الى الحق . الى الايمان بالله !

واشتدت بين جنبيه رغبة في الحرية : في الانطلاق الى الناس ، يحدثهم ويستمع اليهم .

ولكن انّى له ذلك !! وهؤلاء الحراس لا يفقهون من امور الدنيا غير اسوأها ، بله امور الدين التي لا تستقيم إلا لذي حلم وفضل ، وهم ابعد ما يكونون عن هذا وذاك .

وخطر لزيد ، بعد ان طال نفيه وعذاب نفسه ، ان يحاول الافلات من حراسه بواسطة الرشوة ، الرشوة بالمال ، ففاجأهم ذات يوم بان يعطيهم مبلغاً من المال ، ان هم تركوه يمضي لشأنه في حاجة له بمكة ، ثم يعود .

ورأى الشبان الحراس ان المال يعينهم على قضاء بعض الملذات ، فقبلوا فرحين ما وعدهم به زيد ، وخلوا بينه وبين منفاه ، وتنفس زيد الصعداء ! وشعر بالغبطه تغمر قلبه حين تراءت له مكة ، حتى اذا شارفها بدا قلبه يخفق خفقانا سريعاً ، انشرح له صدره ، واشرقت به نفسه . انه لا يريد لمكة الا الخير . ولا يعنيه من امرها الا ان تهتدي الى الحق ، وانه ليشرح صدره ، ويملأ نفسه من

السعادة ، ان تدخل مكة في الخير ، وان تهتدي الى الحق.

ودخل مكة في شغف . وفكر اول ما فكر بصديقه ورقة بن نوفل ، فانطلق اليه ، واجتمع به وقتاً ثم فارقه الى بيته ، ينعم برأى اولاده . ونحسب انه عرّج على دار ورقة قبل المرور ببيته رغم ما في نفسه من شوق لاولاده وهو الاب المثالي ، في بيئته في ذلك العهد ، خشية ان يُعرف بمجيئه الى مكة ، فيحول اهل الاصنام وسفهاء قريش بينه وبين الاجتماع بورقة الرجل الحكيم ، الذي يكفر بالاصنام مثله ، ويؤلم نفسه انغماس قومه في الوثنية ، ذلك الانغماس الشائن البغيض .

وكان ورقة بن نوفل يقيم في داره لا يبرحها الا قليلاً ، فيستقبله بشوق وتكتم ، ثم يجلس الرفيقان في خلوتها يتذاكران ما في النصرانية ، وما في الحنيفية دين ابراهيم .

ويحاول ورقة ان يقنع زيداً بالتؤده في مجاهرة قريش بالعداء لاصنامها ، حتى يجدا لهما مخرجاً ، فيأبى زيد ، ويصر على المضي في سبيله من المجاهرة والعنف ، حتى ولو كان الموت ينتظره في هذه السبيل .

ويعجب ورقة من تصلب زيد في رأيه ، ويخشى عليه مغبة

هذا الصلب فيعمل على تجنيب زيد هذا الخطر الذي يتعرض له ، وهو ضنين به ، حريص على سلامته .

ويعود زيد الى مكان اقامته « الجبري » تضطرب في نفسه عوامل الالم والثورة ، وينظر الى هذا الكون فيجده ارحب من ان يضيق به ، فيتجدد أمله ويزداد ايماناً بأن الله معه . وأن الاصنام لن تغني قريش عن الله من شيء. ثم يعود بعد حين الى مكة ، غير عابيء بقريش وتهديداتها، ويقف في مكان من مكة ، فيجتمع اليه فريق من اهلها، يستمعون الى كلامه الحار البليغ ، يهاجم به الاصنام ؛ ويدعو الى دين ابرهيم ، ويلقي في طمأنينة المؤمن ، يحتقر الحياة التي يعيشها سواد الناس الجاهلين هذا الشعر :

ألا أيها الانسان اياده الردى   فانك لا تخفى من الله خافياً
واياك لا تجعل مع الله غـــيره   فان سبيل الرشد اصبح باديا

ثم ينصرف الى داره ـ قبل ان يعود الى « سجنه » حيث ينتظره الحراس – فيجلس الى صغاره يداعبهم ويلاعبهم ، ويقص عليهم انباء مأساته ، باسلوب يحاول ما استطاع ان يجدوا فيه عوناً على فهم هذه المأساة . وتخرج زوجه صفية الى الخطاب تخبره بامره ، فيهرع الخطاب اليه ، فيضربه ويعنفه . فيصبر زيد على عمه الجليل ، ويظهر امامه كثيراً من اللين ،

ويحاول صرفه عن عبادة الاصنام ولكن الخطاب يبالغ في اذيته ، ويحمله قسراً الى موضعه الذي حكم عليه بالاقامة فيه .

وعلم زيد ان امرأته صفية هي التي وشت به الى عمه الخطاب ، فازداد الم نفسه ، فبعث اليها بشعر يفيض اسى كما يفيض رجولة و كبرياء :

لا تحسبيني في الهوا ن صفيّ ما دابي ودابه
اني اذا خفت الهوا ن مشيع ذلل ركابه

ثم يقول فيه معاتباً عمه الخطاب بأسى فيه محبة انسانية عميقة :

واخي ابن امي ثم عمي لا يواتيني خطابـــه
واذا يعـــاتبني بسوء قلت اعيـــاني جوابه

انك ترى من خطابه هذا ، ان الرجل سخيّ في عطفه كل السخاء ،

زيد ومحمد

بلغت انباء ثورة زيد على الاصنام ، اسماع محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، وهو بعد في العشرين من عمره او دونها . وسعى اليه محمد فيمن سعى ، يستطلع الخبر اليقين ويقف

على الدين الذي يدعو اليه . وسمعه محمـــد يحقر الاصنام ويخفض من شأنها ، بمنطق صحيح لا لبس فيه ، ولا دفع له كما استمع اليه وهو يدعو الى دين ابراهيم ، ويجل ذكر الله ويمجده . فوقع حديث زيد هذا من قلب محمـــد موقع الاعجاب والاكبار ؛ ونظر اليه محمد نظرة عطف حين علم ما علم من امر تشريده وسجنه . وود ، وهو اليتيم الفقير ، لو يستطيع مساعدته لاخراجه من محنته ، او تفريق قريش عن ايذائه ، ولكن محمداً لم يستطع دفع الأذى عنه ، ونحسب ان محمداً داخله شيء كثير من اسف وحزن ، لعدم تمكنه من مساعدة هذا الثائر الذي قام يحقر منزلة الاصنام في النفوس .

وشارك محمداً في رأيه بزيد ، نفر غير قليل من شبان قريش ، فكان هذا وحده عزاء لقلبه ؛ ودافعـاً قوياً له على المضي في ثورته .

ونحن نرى في هذا الذي انتهى اليه زيد شيئاً غير قليل من البلوغ الى مرمى الثورة التي اعلنها ، وخاض غمارها في غير هوادة ، ولكن قريشاً لم تعترف له بغير الهزيمة ، ما دامت اصنامها في الكعبة ما تزال مرفوعة على دكاك . ولم تعلم قريش ولعل الوثنية هي التي اعمت عينيها عن التطلع الى البعيـــد ، ان

رجلاً يدعى محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، سوف يبعث ليحطم الاصنام من بعد زيد ، ويمحوها الى الابـــد ، من اذهانهم واذهان العرب جميعهم .

مكة بلد الثورة

افلت زيد من سجنه ، وقرر ان يقوم برحلة جديدة الى بلاد الشام ، لعله يجد شيئاً جديداً عند علماء تلك البلاد.

وكان اسم زيد قد سبقه الى تلك الارجـاء ؛ فحدث عنه بعض تجار القوافل من قريش ، في همس يشبه نـداء الاساطير الطرية ، وتحدث عنه بعض ارباب هذه التجارة ، في جفوة تشبه عزيف الشياطين جفاء وغلظة ونقمة .

واختلط في اذهان الناس أمر زيد بن عمرو ، فاختلف فيه قوم واتفق عليـه قوم ؛ واختلفوا ايضاً -- بالضرورة والنتيجة - حول الأصنام وهل هي آلهة حقيقة ، أم هي رموز زائفة ، شأنها شأن الصخور في الجبال سواء بسواء.

ونحن نرى في هذا حدثاً تاريخياً مهماً ، قــد حوّل اذهان العرب كلهم ، الى مكة ، يترقبون النتيجة العملية لهذه الثورة التي انطلقت من مكة هادرة مدوية . وينصتون

الى كل همس تنفرج عنـه شفتا مكة

حتى إذا كان مبعث الرسول الأعظم ، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، كان ذلك الارتقاب وهذا الانصات عاملين قويين في شد أزر محمد بن عبد الله ، واقبال العرب عليه يدفعون عنه أذى قريش ، وبعض من عاداه من القبائل.

وهكذا ، تكون مكة ، في عهد زيد بن عمرو ، قد اصبحت قبلة الانظار المتطلعة في تشوق الى دين مستقيم يُعفّي هذه الاصنام ، ليُنزل في القلوب شيئاً من اطمئنان روحي ومادي ، يساعد الناس على التطور ، ويشق لهم سبيل السير الى الامام في نطاق حياة اكرم واسمى ، ولم يطل الترقب ، فقد جاءهم ذلك الدين ، فاذا هم في ظل هدايته وسموه ، يملأون اجواء الانسانية نوراً وحضارة وهـــدى ، في سرعة تكاد تشبه سرعة البرق .

الثائر يلقي سلاحه الى الابد

ترك زيـــد الحجاز ، ميمماً شطر الشمال من الجزيرة العربية ، شطر الشام .

وكان في اثناء سراه ، تستوقف السماء بنجومها وكواكبها ،

نظره وفكره ، فتبعث في نفسه تأملاً عميقاً ، وتساؤلاً عنيفاً : ما لهذا الضلال يستحكم من نفوس قومه ؟ أيمكن لهذه الأصنام البليدة المصوحة ، التي لا تملك من امرها من شيء ، ان تخلق مثل هذه العوالم ؟!

الا يجب ان يكون لهذه العوالم ، لهذا الكون كله ، خالق ، هو وحده الذي يليق بالانسان ان يسجد له ويتوجه بكليته اليه !

ويمضي في سبيله ، يملأ دين ابراهيم عقله وجوارحه ، ويبشر بهذا الدين اينما نزل . الى ان وصل الى منازل لخم بين الشام والعراق ، وكان اسمه قد سبقه اليها ، فتلقاه بعضهم بالترحيب ، واظهر له بعضهم شيئاً من الجفاء والازورار .

وزيد ، كما مر بك ، ثائر شجاع ، لا يخشى أحداً من قول الصدق والصدع بالحق . فاندفع في منازل لخم يشن على الأصنام ، من حملاته العنيفة ؛ يزيده امعانا في العنف ، ما رآه من استمساك كثير منهم بهذه الاصنام .

ان الثائر الحقيقي يُذكي ما في نفسه من صلابة واندفاع في ثورته ، ما يراه من صلابة خصمه واندفاعه ؛ وهذا ما كان

من أمر زيد بن عمرو .

ولكن اللخميين ، لم يعجبهم هـذا منه فبيتوا له امراً خطيراً . لقد اتفقوا على قتله ، وارسلوا له نفراً عـــدا عليه فقتله .

وفي بلد بعيد عن بلده ، القى الثائر العنيد سلاحه الى الأبد . فكان في موته حرباً على الأصنام كما كان في حياته.

يخطيء الناس حين يعتقدون بأن الثائر المصلح اذا هو لم يحقق الغرض من ثورته في حياته ، فلا يكون قد عمل شيئاً ؛ وينسون او يتناسون ان للايفاء على الغاية وتحقيق الغرض ، ثمناً ضخما باهظاً يدفعه الثائرون واحداً اثر واحد . شهيداً بعد شهيد . فاول شهيد عقيدة هو اول درجة من سلم العروج الى الغاية ؛ الى القمة . وللنـــاس على الثائر المصلح ، ليس ان يحقق لهم انتصار ثورته في حياته ، بل ان لا ينثني ولا ينكص على عقبيه ولا يكفر بعد ايمان ، حتى مماته . وقد انتصر زيد فعـلاً ، في انتصار الرسول العربي الكريم ، يوم دوت في سماء مكة لاول مرة في تاريخ الكون ، وعلى حُطام هبل .واللات ومناة والعزى، كلمة : « الله اكبر » .

النبي وزيد

ترك زيد في نفس محمد اثراً لا يمحى .

فلقد ذكره النبي بعد الرسالة فقال : يبعث يوم القيامة أمة وحده .

فأي رجل هو ، هذا الرجل الذي سيبعث أمة وحده؟!
وأية شهادة هذه الشهادة ، ينطق بها رسول الله المصلح الاعظم ؟!

انا في تقديرنا لزيد بن عمرو ، بطولته في ثورته المباركة ، كنا مقيدين بضيق صدور المؤرخين عن التبسط في اخبار زيد ، وعظمة حركته ، تبسطاً كان من حق زيد فيه ، ان يجيء في الصدارة من حقوق صانعي التاريخ على المؤرخين . ولكن كلمة الحق : محمد بن عبدالله ؛ الرسول الاعظم العربي ، عوّض زيداً من تبسط المؤرخين في سيرته ، هذه الشهادة الضخمة المنقطعة النظير .

النار والحديد

للنار والحديد ، في عرف التاريخ ، رهبة الظلم ، ووقع

العمل الوحشي ، في النفوس ، اذا هما لم يُبذلا في سبيل الحق والخير ، وقد يكون من امرهما ، انه يصح ان نعتبرهما سقطة في تاريخ الحضارات ، اذا كانت غايتها لا تتعدى طاقة النار والحديد قتلاً وتهديماً ! وهما ، اذن ، في عرف التاريخ - وهذا صحيح في منطق الانسانية - اداة الى غاية ، لا غاية بنفسها ، فالفكرة الواعية الخيّرة ، تتصل بالغاية الشريفة الخيرة ، هي وحدها التي تبقى ذات الشأن في ميزان الحساب الانساني في التاريخ .

ولئن فات زيد بن عمرو ان يدق بالسيف ، اعناق الاصنام ، - وليس هذا بمأخذ - ، لان الظروف في سلبيتها أبت ذلك ، فلم يفته - ومن هنا اجلالنا له ، واعجابنا به - ان حطم مكانتها في النفوس ، وزعزع الايمان بها في القلوب ، بعد ان خلع عن نفسه نير وثنيتها الثقيل .

ان الثورة الفكرية هي المبدأ وهي الغاية .

واما الوسائل فعرض له حسابه في زمنه الخاص ، حسب .

حتى اذا كان النصر النهائي ، بقيت الفكرة منطلقة في جلالها وابدية الخير فيها ، لا تُعنى بالوسائل ، ولا يُعنى

بها التاريخ ، الا بقدر ما يكون فيها من طاقة ، لتحقيق الفكرة الخيرة ، والغاية الحضارية الانسانية ، السامية.



ورقة بن نوفل

حكيم قريش

مرّ بنا في الكلام على زيد بن عمرو ، شيء من قصة « مكة » في اواخر عهد جاهلية العرب ؛ ذلك العهد الذي كانت تصطرع فيه مكة اصطراعاً عميقاً بين وثنيتها ؛ وثنية العرب — الا اقلهم — وبين الحنيفية ، تضطرب في نفوس قلة ضئيلة من قريش العاتية ، يومذاك ؛ على ان هذه القلة الحيرة ، كانت تمثل ما يساور نفوس العرب في مكة وفي غيرها ، من حيرة قاسية موجعة ، يترجّح العرب في قبضتها ، ذات اليمين وذات اليسار ، دون ان يقووا على شق مخرج لهم منها . ويقوم هذا شاهداً ، في جملة الشواهد ، على ان جاهلية العرب — ولا سيما في ذلك الحين بالذات — لم تكن شراً ، كلها ، ولا كانت جهلاً ، كلها . وان الوثنية عندهم كانت اخذت تتبدى لهم ، او لفريق منهم ، شيئاً باهتاً جافاً هزيلاً . والحيرة في مثل هذه الحال ، وفي كل حال ، على ما في باطنها من ايلام للنفس وايذاء ، بل لما في باطنها ، من هذا الايذاء وهذا الايلام ، ما تنقطع ، ولا تسكن ، الا بعد ان تصدع ظلمات الليل القائم ،

وتنفذ بالنفوس الحائرة ، الى جوّ ، فيه شيء مما ترجيه من نور ، ومن معرفة ، ومن يقين ؛ تنفحها ، مجتمعة ، بشيء من الاطمئنان. ويبدو لنا ان مكة في ذلك الحين ، كأنما كانت تترقب في لا وعي ، هذا الجو المرجّى ، وتتشوف الى الغيب ؛ الى المجهول ، تستلهمه الهداية ، في كثير من التوله ، ومن الحذر ايضاً .

ولعلنا نستطيع التأكيد ان مردّ هذه الحيرة ، وهذا الاصطراع ، الى قبضة من الاحناف ، كانت في مكة تحتقر الاصنام ، ولكنها لا تعلم كيف وعلى اي وجه تعبد الله . وكانت هذه القبضة من الرجال الاحناف ، ذات منزلة ، وذات شأن ؛ على تباين ما لهم — في نفوس قريش — من حرمة ومن هيبة . وعلى ما بينهم من تفاوت الدرجات ، في نطاق المعرفة والثروة وعز اللحمة في النسب . والاحناف هؤلاء ، جماعة من قريش ، كفروا بالاصنام ، ورأوا في الوثنية سُبّة العرب ، وعرفوا من دين ابراهيم ما كان كافياً ليبغّض الى نفوسهم كل ما يتسم ، من العبادة ، بغير سمة الاعتقاد بوجود خالق واحد احد . وعُرف دين ابراهيم عندهم بالدين الحنيف ، اي المستقيم . ولكن احداً من بينهم

في ذلك العهد ، لم يكن يعلم عن هذا الدين اكثر من ذلك . وكان البارزون في مكة من جماعـــة الاحناف هؤلاء ، المكرمون نفوسهم عن عبادة الاصنام ، الكارهون للوثنية، المعذبون في تفكيرهم الملحّ ، يُغرقهم في الحيرة ، تُقضّ مضاجعهم ، وتُسلمهم الى الخيال حيناً ، والى الوهم حيناً ، وتدفعهم الى السخط دائماً ، على بني قومهم وما يعبدون ، اربعة نفر ، هم : ورقة بن نوفل بن عبد العزى ، وعبدالله بن جحش بن رئاب ، واسد بن عبد العزى ، وزيـــد بن عمرو بن نفيل .

كان ورقة بن نوفل ، حكيم قريش ، والقطب الذي يدور عليه معظم امرهم ، ولا سيما ما اتصل منه بالمشاكل الروحية ، ومشاكل العبادة . وكان رجلاً راجح العقل ، بعيد الغور ، غزير المعرفة ، رحب الصدر ، رحيم القلب، وكانت نفسه ، رغم انها قد بُغّض اليها ، اكثر من اية نفس أخرى في قريش ، العكوف على عبادة الاصنام ، والانغماس في هذه الوثنية الباهتة الخرساء ، اكثر نفوس الاحناف هدوءاً ، واقلها ثورة بارزة في معالجـة قضية الاصنام . وقـــد يكون ذلك لان نفسه كانت مطمئنة الى ان

موعد هذه الوثنية بالزوال ، اقرب مما تظن قريش ، حتى واقرب مما يظن اصدقاؤه الاحناف ، ولذلك كانت ثورته على ضلالة قريش ، تتمثل في سخافة عبادتها وعقائدها وتقاليدها ، ثورة هادئة . كانت ثورة في القلب دون اليد ودون اللسان . ولا نعني بهذا ، ان ورقة بن نوفل كان يثني صدره استخفاء ، اي انه كان يكره الاصنام ويحتقرها ويكن لها العداوة ، دون ان يقول فيها سوءاً ، او دون ان يحاول ثَنْيَ الناس عن عبادتها . لا . ولكن ورقة في طبيعة نفسه ، وشيخوخة عمره ، من جهة ، وفي جلال قدره ، واجتماع قريش على استصفائه ، وفي ما كان يحوك في نفسه ، من يقين بان في الغيب امراً ، على وشك ان يطلع على قومه لا محالة ، يقين بمجيء نبي مرسل في القريب ، من جهة اخرى ، كان يؤثرُ الروية والاناة واللين ، في صرف قريش عن اصنامها ، وفي تسفيه عقائدها وتقاليدها واحلامها ، فكان ينفّر قريش من وثنيتها ، ويجهد في ردها عن موارد الضلال ، بالقول الكريم ، والدعوة الرصينة الى الحنيفية السمحة .

وكانت دار ورقة الفلك الذي يدور فيه النفر الاربعة ،

اي الاحناف . يجتمعون فيه ، فيتذاكرون شؤون قومهم ، وما هم فيه ، من عمهٍ وعبث وغواية . ويمعنون في التفكير لنفوسهم ولقريش ، بحثاً عن مخرج من هذه الظلمات ، ومن هذا الحرج المُمض ، يكاد يذهب بنفوسهم ألمــاً ، وقلقاً واضطرابا . حتى اذا كان يوم من ايام احد الاصنام الذي تعظمه قريش ، وتحتفل فيه بعيده .. اجتمع القرشيون يعكفون على الصنم ويديرون بــه ويذبحون له ؛ خلص الحنفاء الى دار ورقة بن نوفل واخذوا يتشاورون . ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا . وليكتم بعضكم على بعض . قالوا: اجل .

وكانوا : ورقة بن نوفل بن عبد العزى ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب ، وعثمان بن اسد بن عبد العزى ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

وقال بعضهم لبعض :

تعلمون والله ، ما قومكم على شيء ، لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به ؟! لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ، يا قوم ، التمسوا لانفسكم ، فانكم

والله ما انتم على شيء«١» .

رحلة في سبيل الله

وكان اجتماع الحنفاء هذا ، في دار ورقة ، آخر اجتماع ضمهم جميعاً ، ثم تفرقوا في البلدان ، يلتمسون الحنيفية : دين ابراهيم ، في اطراف الجزيرة ، في الشام ، في العراق ، في كل مكان ، من البلدان العربية ، الذي كانت الظروف الزمنية والمكانية ، تسعفهم على الوصول اليه ، والسعي في حاجتهم في رحابه . وكان من امر ورقة ، ان خالط اليهود وباحث علماءهم ورجال الدين فيهم ، فاخذ واعطى ، واستعلم وتعلم . وقرأ كتب القوم ، قراءة دراسة وبحث واستقصاء ، ولكنه لم ينفتح لها قلبه . ولا اطمأن لها عقله . ثم اقبل على الاحبار والرهابين ، في ديار الشام ، ولعله لم يترك ديراً معروفاً في ذلك الحين الا وزاره . وكانت الاديرة في ذلك العصر ؛ مهابط نور وعلم ، ودور ضيافة واستئناس .

لم يكن ورقة غريباً باسمه عن هؤلاء الناس المنقطعين في صوامعهم وبيعهم الى عبادة الله . فورقة ، بموقفه في مكة

(١) ابن اسحق .

من الوثنية ؛ وورقة ، بحكمته وطهارة نفسه ، واستقامة حياته ، يعرفه من رجال النصرانية عدد غير قليل . ويعرف هؤلاء الرهبان ، او فريق منهم ، ولا سيما رؤساؤهم ، ان ورقة بن نوفل بن عبد العزى كان يتحنف ، وانه خرج من مكة مع رفاقٍ له ، ضيقاً منهم باصنام مكة ، ووثنية قومهم قريش ، وغير قريش من عرب الجزيرة ؛ والتماساً لدين ، تسكن اليه نفوسهم وتأمن له قلوبهم وعقولهم ، يعبدون الله على سننه ، ويقشعون به الظلمات عن مكة ، فتنشط من عقالها الوثني ، يشدها – في افق ضيق – ، الى التراب والحجر ، والى سخف العقائد والتقاليد المتهرئة المُقعِدة ؛ وتنطلق في ضوء عقيدة جديدة خيِّرة سامية ، تبني انسانية جديدةً خيِّرةً سامية .

كان هؤلاء الرهبان الصالحين ، يعرفون هذا واكثر منه ؛ مما تناقلته الركبان من اخبار ورقة ، قبل خروجه من مكة وبعد خروجه منها . وكانوا يأملون ان يرى ورقة في النصرانية ، ما أُترعت نفسه شوقاً اليه ، وشغفاً به ، وولوعاً بجماله وعظمته وقداسته .

ومن هنا – عدا ان الاديرة في ذلك العهد خاصة ، كانت

مفطورة على حب الاضياف واكرامهم ، كما اشرنا الى ذلك من قبل - كان ترحيب الاحبار والرهبان ، بورقة بن نوفل ، شديداً حاراً ، واكرامهم اياه ، بالغاً مؤثراً .

وقد عكف ورقة على دراسة النصرانية مع الاحبار والرهبان في نهم شديد . وامعن بتفهم فلسفتها في ما كانوا يضعونه بين يديه من كتب ورسائل ، في شغف ولذة . وكان يناقش الرهبان والاحبار ويناقشونه ، في كثير من المعرفة والحكمة والرصانة ، فاطمأنوا اليه ، واطمأن اليهم ، واستحكمت بين الفريقين اواصر إلفة ومحبة وثقة .

وكان ورقة حينما يخلو الى نفسه ، يستعيد الى ذهنه كل ما يكون قد دار بينه وبين اصحابه المضاييف ، من حديث ومن نقاش ، فيطمئن قلبه ، وتاخذ الحيرة في الانكشاف عن نفسه وعن عقله . وعلى هذا النحو اخذ ورقة يتغلغل في النصرانية ، حتى اذا عاد الى مكة ، بعد غياب طويل ، ومعه من كتب النصرانية ما كان قد جاء به من ديار الشام ، آوى الى داره ، لا يبرحها ، وقد استقر في النصرانية .

بين ورقة وزيد

لقد عرفت في ما عرفته من أمر زيد بن عمرو ، انه كان يختلف الى دار ورقة بن نوفل في مكة ، كلما عصفت به شدة ، او تهدده من جانب قريش ، مكروه ، لثورته العنيفة على معتقدات قريش ؛ وتحقيره اصنامها ، وازدرائه لانواع عبادتها . فكان يلقى من لدن ورقة ، الذي لم يكن اقل منه كرهاً للوثنية ، ولا اقل منه احتقاراً للاصنام ، احسن الوان الرعاية ، وارق انواع العطف . ولكن زيداً ، كان فيما يبدو لنا غير مستطيع ان يفهم اي معنى لاعتصام ورقة ، بالتؤدة واللين ، في محاربة الوثنية ، والدعوة الى الكفر بالاصنام ، واحتقارها. وهو يعلم علم اليقين ان ورقة عدو للوثنية وللاصنام ، ويؤمن بما يعلم ! فكان كثيراً ما يخاطب نفسه بمثل هذا الكلام : ان ورقة بن نوفل في نفسه وفي عقله ، ثورة لاهبة ، على الوثنية والاصنام .

وانه رجل يؤمن بان هناك رباً واحداً خالقاً .

وانه ينقم من قريش معتقداتها السخيفة ، وعبادتها الباردة

الباهتة المضحكة المبكية . وانه يسخر من هـــذه العبادة وهذه المعتقدات .

وان في قلبه منها حُرقة ، تعصر قلبه ، فتكاد تطفر به دموعاً ، يردها الى قلبـه ، تجملاً وتصبراً ! فمـــا باله لا يطلق هذه الثورة ، مزمجرة مدوية ، فيمشي الاحناف في ركابه ، ومن الى الاحناف من شبان وكهول ، في مكة ، تساورهم الشكوك في عبادة قريش ، وتلعب في البابهم الحيرة الظامئة الى المعرفة ، والى النور ، والى الاستقرار؟!

أمور ! من حق زيد ان يسأل نفسه عنها ، ولكن نفس زيد – فيما نعلم – لم تجد لهذا السوآل جواباً . وهي في الواقع ، امور تدعو ، في معرض التأريخ لورقـة ؛ ورقة الحكيم الصالح ؛ الكاره للوثنية ، والمزدري بالاصنام؛ ورقة المتحنف ، ثم المستقر في النصرانية ، المؤمن بالله واحد خالق السماء والارض ومـــا بينهما ؛ الى التساؤل ، والى التفكير ، ومن حقنا ، ومن واجبنا ايضاً ، ان نجلو هذه الامور ، وان نوضح مردّها عند ورقة ، ما هو ؟

ما بال ورقة لا يحارب الوثنية ، ولا يحقر الاصنـــام جهاراً وفي عنف ، مثل زيد ؟!

ما بال ورقة لا يطلق ما في نفسه وفي عقله ، من ثورة على الاصنام وعلى الوثنية ؟!

ايكون مرد ذلك الى ان ورقة بن نوفل كان ما يزال في حيرة من امر هذه الاصنام ، ومن امر الوثنية ، جملة ، في الجزيرة العربية ؟!

او يكون مرد ذلك الى انه اقل ايمانا من زيد بالاله الواحد ؟!

او الى انه ، رقيق الحال ، — وقد كان ورقة رقيق الحال فعلاً — تشغل قلبه شواغل العيش اليومي ، وتصرفه عن المغامرة في سبيل ما يعتقده حقاً ؟!

او يكون مرد ذلك ، الى ان ورقة بن نوفل كان يعلم من امر المستقبل ما لا يعلمه زيد ، وغير زيد ، من الاحناف المتحمسين . وانه كان يرى ببصيرته ، في الغيب ، ما لا يراه زيد ، فيطمئن الى هذا المستقبل ، وهو في علمه ، مستقبل قريب ؛ تتحطم فيه هذه الاصنام ؛ وتعفو الى الابد ، في جزيرة العرب ، هذه الوثنية التافهة الخرساء ؟!

ان في ما نعلمه عن ورقة بن نوفل مما جاء في السير ، وفي الاحاديث ، وفي كتب التاريخ ، ما يحملنا على القطع ، بان ورقة في ذلك

الحين ، كان قد فرغ من الحكم في قضية الوثنية ، ووجوهها من الاصنام . ولعله اول من احس ، او في مقدمة الاوائل الذين احسّوا عجز الوثنية وتفاهتها وصفاقة هذه الاصنام وضعتها ، ولم يكن يخفي ذلك ولا يماري فيه . فليس الى اتهامه بالحيرة في شأنها من سبيل !

اما انه كان اقل ايماناً من زيد ، بالاله الواحد ، فهذا ايضاً لا سبيل الى التصديق به ، ولا الى الشك في انه غير صحيح ، ودليلنا على ذلك ان ورقة كان ، باتفاق المؤرخين ، يذكر « الله » كثيراً ويترقب من لدن الله ، نبياً مرسلاً ، يقضي على جهالة قريش وضلالتها ، ويخرج العرب من الظلمات الى النور ؛ ويخلق منهم امة بين يديه ، تملأ الدنيا معرفة وهداية وحضارة ؛ وتغير مجرى التاريخ.

وان ورقة كان في الجاهلية يرسل الاشعار يسبح فيها الله ، ويمجده . ويرجّي رحمته هو وحده . وقد شهد له بذلك الزبير بن ابي بكر . وعبدالله بن معاذ ، ومعمر ، والزهري ، وعروة بن الزبير وغيرهم«١» ومن شعره في هذا المعنى :

---

(١) الروض الانف .

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم انا النذير فلا يغرركم احــد
لا تعبدن الهاً غير خالقــكم فان دعوكم فقولوا بيننا جدد
سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له وقبلنا سبح الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي ان ينادي ملكه احد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الاله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجري الرياح به والانس والجن فيما بينها مرد
اين الملوك التي كانت لعزتهــا من كل اوب اليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوماً كما وردوا

واما ان رقة حال ورقة – وقد كان رقيق الحـــال فعلاً «١» – كانت تشغل قلبه ، وتفرض عليه السكون ؛ فابعد ما يكون عن الاحتمال في رجل مثل ورقة . فورقة، عدا انه غير عائل ، رجل فذ ؛ ادراكا ، ومعرفــة ، وشجاعة مطمئنة ، وعلو نفس ، ومنزلة من قومه ، وجلال قدر . وقد كفر بالاصنام وآمن باله واحد . فليس للفقر ، ولا للغنى كبير شأن في حياة ورقة ، وامثال ورقــة ؛

(١) ان رقة حال ورقة هي التي حالت بينه وبين الزواج بخديجة ابنة عمه. ولم تنزع نفسه الى الزواج بغيرها . فبقي عانساً .

من هؤلاء الذين تنفتح لهم ، في لحظة من لفتة الضمير الى فوق، ابوابُ السماء ، فتغسلهم بانوارها الطاهرة المطهرة ، وتجعل منهم قبيلًا ، فوق الغنى وفوق الفقر ، في منجاة من تأثير الحاجة ، وتاثير الخوف ، خوف السلطان ، وخوف الحياة . وتحررهم من كل قيد ، الا قيد الايمـــان بالخير والحق والمثُل العليا . — أن جاز ان نسمي هذا قيداً — قبيلًا يعيش في هالة من نور الله ، يسمع في نطاقها ، منبعثاً من اعماق روحه ، من قرارة ضميره ، همساً ، هو عنده صوت الله ؛ فتغمر روحه وكيانه كله ، نشوة من لذة ، هي اعمق مدى من الوجود . وهي بمفهوم الطاقة ، في منطق الزمان والمكان ، اي ما يسمونه الماضي والحاضر والمستقبل تفجير لينبوع التاريخ يفيضُ من الخير ، والبركة ، والهداية وقوة الحيوية الفكرية المشرقة ، ما يقطع الطريق على تيار الشر ، والجهل ، والظلمة ، والضعف ، ويمد الوجود ابداً، بالقدرة على مغالبة هذا التيـار ، والعروج في سلم الحضارة المحسنة ، الى قمة الكمال الانساني في وجهيه ، المادي والروحي ، على السواء .

الى اي مرد ، إذن نرد اعتصام ورقة بن نوفل بالهدوء

واللين ، في معالجته وثنية قريش الباهتة الخرساء . وفي محاولته بالهدوء واللين ، صرفها عن هذه الاصنام الصفيقة التي لا تحس ، ولا تعي ، ولا تضر ، ولا تنفع ، وامتناعه عن اطلاق هذه الثورة تصطخب في نفسه ، عليها ؛ الى اي مرد ، يصح ان نرد هذا الهدوء ؛ وهذا اللين عند ورقة ؟!

ان طبيعة نفس ورقة الهادئة ، وشيخوخته المشرفة على العجز ، ورجاحة عقله البالغة ، وسماحة خلقه العميقة ؛ هذه كلها ؛ مع علمنا بما ينبغي ان يكون لها ، دون ريب ، من اثر في اسلوب محاربته العقائد السخيفة والاوضاع الفاسدة ؛ ليس في طاقتها وحدها ، ان تكوّن سداً مانعاً دون اندلاع ثورة نفسه ، على تلك العقائد والاوضاع ؛ تزري بقومه ، وتغرقهم في دياجير من الانحطاط ، ومن المظالم ، ومن القسوة الوحشية الوضيعة المقيتة ؛ من مثل عبادة الاصنام . ووأد البنات . واسترقاق الاغنياء للفقراء ، واستباحة الاقوياء حرمة الضعفاء وحقوقهم وحرياتهم ، وما الى ذلك من منكرات ؛ وهو يحب قومه ، ويكره هذه المنكرات ! على ان هذه العوامل ، اذا نحن اضفناها الى ما في نفس ورقة من عامل رئيسي ، في تنكبه عن اطلاق الثورة ،

كما يحب زيد بن عمرو ويفعل ؛ وضح لها شيء من الفعل؛ ولكنه شيء جزئي ضئيل ، بالنسبة الى العامـــل الاصيل الرئيس ، وهو العامل الذي كان يجهله زيد وغير زيد ، ويستقل بمعرفته في قريش ومن اليها ، حكيم قريش وحده : ورقة بن نوفل .

فما هو هذا العامل الخطير ؟!

حكماء في الجاهلية

كانت النصرانية قد عُرفت في الجزيرة العربية ، ومثلها اليهودية ، ايضاً — على فرقٍ في تاريخ دخولها اليها - قبل وقوع الحوادث التي تتصل بحياة ورقة ، وعهده . وكان العهد مع ذلك ما يزال عهداً جاهلياً ، مظلماً ؛ لضآلة عدد الذين كانوا من العرب قد اعتنقوا هـذا الدين ام ذاك . فقد كانت الوثنية هي السائدة . وكانت الاصنام وحدهـــا موضع التقديس والعبادة .

في تلك الفترة من جاهلية العرب ، وفي خـــلال ما يقرب من خمسين سنة او اكثر او اقل قليلاً ، قبل مبعث محمد بن عبدالله الرسول الاعظم العربي الامين ، كان يعيش

في الجزيرة العربية ، نفر من الملهمين العرب ؛ لم يدخلوا في نصرانية ولا في يهودية ؛ ولكنهم كانوا يكرمون نفوسهم عن عبادة الاصنام . ويرون في الوثنية ، ظلمة العقل والفكر ؛ وضلالة القلب ، والروح ؛ يعزفون عنها في كراهية ، وفي وجل من الغيب ؛ استجابة لداعي العقل النير عندهم والفكر . وتلبية عفوية لنداء الروح والقلب ، يجلجل في قرارة الوجدان منهم ، دون ان يتبينوا من امره من شيء ، يقنعون به الناس في علم ، انهم في الضالين ، ودون ان يستقيم لهم منطق من دين ، يصدعون به في قدرة ، وثنية الوثنيين ، من قومهم ، وضلالتهم .

كان هؤلاء النفر ، في احلام يقظتهم ، يرون من حين الى حين ، كأنما السماء تشّقق عن صواعق تنقض ، فتحطم هذه الاصنام الكريهة البلهاء ، وكانوا يرون كانما الشهب تسّاقط من السماء ، فتصدع بنورها الساطع ظلمات الجزيرة . فيخيل اليهم ، كأن ما يرونه بينهم وبين نفوسهم في نطاق الذات ، واقع مادي ، يتحرك في نطاق طبيعة الزمان والمكان ، فتشمل نفوسهم الثائرة الوالهة ، هدأة الانتظار والترقب .. لقد آن للمنتظر ان يظهر !!

لقد كانوا على يقين من ظهور المنتظر ، وفي القريب .
نذكر من هذا النفر الخير عبد المسيح بن نفيل الغساني في العراق. وسطيح في الشام . وورقة بن نوفل في الحجاز .
وكان ورقة حكيم قريش ، حكيم هؤلاء الحكماء جميعاً، وابعدهم امعاناً في استكشاف المجهول ، واكثرهم وداعة نفس، ورحابة قلب، واشراق فكر . كما كان اوفرهم علماً وعقلاً ورصانة. وكان منزله – من دونهم – في مكة ، ومنزلته من نفوس اهلها ، ومكة مدينـــة الاوثان ؛ ومُعتَصم بيت ابرهيم واسمعيل ؛ مكة الضاربة يومذاك ، في وجود من حيرة العقل، وظمأ القلب ، والتي صارت بعد حين ، مهبطاً من مهابط الوحي ، ومنارة من منائر النور والهداية ، ومطلعاً من مطالع حرية الانسان ، وحق الانسان ، يتصل بالناس ، ويتصلون به ، رغم ما كان فيه من عزلة روحانية ، ورغم انه كان يعيش بفكر وبوجدان ، غير الفكر ، وغير الوجدان اللذين يعيش بهما اولئك الناس ؛ كان منزله في مكة ومنزلته نقول ؛ يتيحان له ، ما لا يُتاح لغيره من حكماء الجاهلية ، ومن الاحناف ايضاً ؛ من نفاذ الى ما وراء حجب الواقع . ومن استشفاف لما في اجواء المجهول ، تتبدى له غير اجواء

حاضره ؛ ويأنس فيها فيضاً من نور .. يكتسح الظلمة اكتساحاً ؛ ظلمة العقول والنفوس ؛ ظلمة هذه الوثنية الجاهلة المتعجرفة . وظلمة هذه الاصنام الصقيعة البلهاء ؛ رغم انف الوثنية ، ورغم انف الاصنام .

وكان ورقة يأنس في ذلك الفيض من النور ، وجه الانسان العربي المصطفى ، وجه النبي المرسل ؛ نبي هذه الامة المنتظر ؛ الذي سيحطم الاصنام . ويمحو عبادة الاوثان . ويقيم في العقول والقلوب ، عرش خالق الارض والسماء ؛ الله رب العالمين الرحمن الرحيم ؛ الملك الديان .

هذا النبي الذي آمن به ورقة بن نوفل ، من قبل بعثه ، ومكنت رحلته الى الشام ، في قلبه لهذا الايمان .

هذا هو العامل الخطير العظيم الاصيل - وقد المحنا اليه في مستهل كلامنا على ورقة - الذي كان يمسك في نفس ورقة ، - وهو من عرفت مزايا وطباعاً وصفات ، - بزمام الثورة في نفسه على اصنام قريش ، واوضاع قريش ، فيحول بينها وبين الانفجار . ويلجأ ورقة - منفعلاً بهذا العامل الخطير العظيم - الذي كان يجهله زيد ، وغيره من الاحناف ؛ في تسفيه احلام قريش ومحاربة اصنامها ،

وثَنْيِهـا عن الضلالة والعبث : الى القول الكريم . والى الرصانة السمحة ، في روية واناة .

ورقة في حديثه عن النبي

كان ورقة بن نوفل ، ابن عم لخديجة بنت خويلد ؛ السيدة الموهوبة ، الجليلة القدر ، الكبيرة القلب ، النقية النفس ، وكانت خديجة من الصلة بورقة بحيث تراها ادنى ما تكون اليه ، دنواً لا يقتصر على صلة القربى بالدم ، بل يتجاوزها الى ما هو اوثق عروة ، واقوى آصرة ، واعمق اثراً ؛ الى القربى بالفكر والروح والعقيدة . فقد كانت خديجة من النفر الطليعة الذين يحسون السماء تمور بامر عظيم ، يترقبونه في توله وفي ثقة ، ويدركه منهم اكثر من يدركه ، ابن عمها ورقة ؛ الذي غدت تعجب به وتركن اليه ، وتخلد في كل ما يعرض لها من امور ؛ امور معتقدها ، وتطلّعها الى الغيب ، وامور دنياها ، الى رأيه ونصحه وارشاده ، اخلاداً فيه سكينة النفس واطمئنان القلب . حتى غدت وهي ليست له ابنة عم حسب ، بل تلميذة ومريدة . وغدا وهو ليس ابن عم لها ، لا يعدو

حد القربى ، بل ايضاً معلماً ومرشداً .

وفي احد الايام ، بينا ورقة في داره ، يمعن في قراءة ما بين يديه من كتب في النصرانية ، جاء بها من الشام؛ ويسترسل في تأمله استرسالاً ينفذ الى الصميم من هـــذا الوجود ، ومن عقيدته النورانية ؛ يترقب تحقيقهـــا ، في سكون نفس ، واطمئنان قلب ؛ دخلت عليه مضطربة واجفة ، ابنة عمه خديجة . فتلقاها في بشاشة وترحاب ، يتوعها عطف وحنان . وسألها عما بها ، في اهـــتمام بادٍ وطمأنينة مستقرة . وتقول الرواية ان ابنة عمه اخبرته بانها رأت (كأن شمساً عظيمة تهبط الى منزلها من سماء مكة ، فيغمر ضوءها ما يحيط المنزل من امـــاكن قصية وبقاع . وتهب من نومها مضطربة وتسارع الخطو الى داره . فينبؤها ورقة بوجه متهلل ، بسر الرؤيا . وان تلك الشمس علامة مجيء المنتظر . وحلولها بمنزلها علامة انهـــا تحضنه ، وتبيت ادنى ما تكون منه«١»)

ويحدث ان تنال خديجة شرف الاقتران بمحمد بن عبدالله قبيل مبعثه ، وان يكون ورقة ابن عمها هو الذي زوجها.

---

(١) « مثلهن الاعلى » العلايلي

وذلك في حديث طويل ممتع ، يفيض عبقاً كالبخور . ويُضيء نوراً كحبات شعاع . قبل الزواج وبعده .

ونحن نقتصر لك من ذلك الحديث ، على احد فصوله ؛ لاتصاله بورقة بن نوفل اتصالا عميقاً ، سيطالعك اثره القدسي في نفس ورقة ، ونفس خديجة ، ونفس محمد بالذات ، في ما ستقرأه من صفحات :

قالت السير :

(اقبل القوم من بني هاشم يوم الاملاك « العقد » وفيهم كريم فتيانهم ، ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبدالله ؛ يحف به عماه ابو طالب وحمزه . فنزلوا من بني عمهم اكرم منزل واسناه ؛ حيث قابلهم واحتفى بهم ، عمرو بن اسيد ، عم خديجة . وما ان اكتمل عقد اجتماعهم ، حتى قام ابو طالب ، إمام قريش يومذاك وسيدها ، فقال :

« الحمد الله الذي جعلنا من ذرية ابرهيم ، وزرع اسماعيل وضئضيء معد وعنصر مُضر . وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه . وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرَماً آمناً ؛ وجعلنا حكام الناس ..

« ان ابن اخي هذا ، محمد بن عبدالله ، لا يوزن به

رجل ، الارجح به شرفاً ونبلا وفضلا وعقلاً . وان كان في المال قِلّ ؛ فان المال ظل زائل ، وامر حائل وعارية مسترجعة .

« وهو – والله بعد – نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد رغب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله ...

فقام على الاثر ابن عمها « ورقة » فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت . فنحن سادة العرب ، وقادتها . وانتم اهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد احد من الناس فخركم وشرفكم .. فاشهدوا عليّ معاشر قريش اني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله » ..

وكان « ورقة » في موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن اسد ، عم خديجة ، فالتفت ابو طالب وقال :

يا ورقة ادع عمها يشاركك العقد .. فنهض عمها عمرو ، وقال : اشهدوا علي يا معاشر قريش اني قد انكحت محمد بن عبدالله ، خديجة بنت خويلد«١» .

---

(١) مثلهن الاعلى . العلايلي .

يقول العلامة العربي الفاضل ، والكاتب العبقري الفذ عبدالله العلايلي في كتابه : « مثلهن الاعلى » :

« وهكذا استوى بعد انتظار شحيح ، لتلك النغمة الشاردة ، أن تنسجم انسجاماً في لحنها العبقري ؛ وقد انهمر من انامل القدر ، انهار جدائل الشمس ، توشح بها وجه الشروق .

« هذا اللحن الذي سكب الغيبُ فيه عمقه ، وعبارة اسراره ، وكانت اذن الحياة ظمأى ، يثقلها الفراغ وتمعن في نواحيها الوحشة » .

وما ان استوى لتلك النغمة الشاردة ، ان « تنسجم انسجامها في لحنها العبقري ؛ وقد انهمر من انامل القدر ، انهار جدائل الشمس ، توشح بها وجه الشروق » ، حتى غدا ورقة كل يوم ، يستمع من ابنة عمه خديجة ، الى خبر جديد عن زوجها . تجيئه فتحدثه عنه في اعجاب وفي اطناب وفي خشوع ، تحاول اشباع حديثها افصاحاً ، فيخونها الافصاح ، فيبتسم لها ورقة ، كانما هو يقول لها : لقد فهمت ؛ لقد علمت . ثم يتمتم كانما هو يناجي نفسه :

(قد كنت عرفت انه كائن لهذه الامة نبي يُنتظر ،

هذا زمانه . وعساه ان يكونه)

ثم يقول : « وما بي اتمنى انه هو . هو نفسه وهذه علائمه »

وتنقلب خديجة الى دارها ، مفعمة القلب والنفس ، غبطة وايمانا وحماسة .

ويبدأ ورقة يشعر بجديد يخالجه ، لم يكن يشعر به من قبل في هذا الوضوح . حتى صار اذا انقطعت عنه ، يبعث اليها . فقد اصبح يُحسّ في اعماق نفسه ، حاجة ملحاح الى سماع حديثها عن محمد ، تتحدث عنه حديث قلب وعقل ومشاهدة ، فيكشف له حديثها عن حقيقة ينتظرها ، عجزت معارفه عن ان تجلوها بهذا الوضوح .

وبلغت به اللجاجة في الترقب ان راح يبيت ليلته ، وهو على مثل اليقين بان المبعوث سيطلع عليه مع بسمة الفجر ، او تنفس الصبح ، فما يمسك نفسه عن ان يهتف :

لجبت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصفٍ ... لقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك ، ان ارى منه خروجا
بان محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية ان تموجا
فيلقى من يحاربه خساراً ويلقى من يحاربه فلوجا
فيا ليتني اذا ما كان ذاكم شهدت ،وكنت اكثرهم ولوجا
ولوجا في الذي كرهت قريش ولو عجّت بمكتها عجيجا
فان يبقوا وأبقَ ،تكن امور يضج المعنتون لها ضجيجا
وان اهلك فكل فتى سيلقى من الاقدار متلفة خَروجا«[1]»

ورقة مع النبي

تقول الرواية :

(اول ما بُديء به رسول الله (ص) من الوحي ، الرؤيا الصالحة . فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .. ثم حُبّب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه .

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .. فقال : ما انا بقاريء .. قال : فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني ، فقال : اقرأ .

وتمضي الرواية في سرد ما وقع لمحمد في الغار ؛ وكيف

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٢١

رجع الى خديجة يرجف فواده ، فاخبرها الخبر ؛ وقال : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة :

كلا والله . ما يخزيك الله ابداً . وانطلقت به الى ورقة بن نوفل ، وكان غدا شيخاً كبيراً كُف بصره . فقالت له خديجة يا ابن عم ، اسمع من ابن اخيك . قال ورقة : يا ابن اخي ماذا ترى .. فاخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة :

هذا الناموس الذي نزل الله على موسى وعيسى . يا ليتني فيها جذعاً . ليتني اكون حياً اذ يخرجك قومك .. فقال أوَ مُخرجيّ هم ؟!

قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ، الا عوديَ . وان يُدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً .

وبعد يسير من وقت ، وقد جلست خديجة يوماً مجلسها المعتاد من ابن عمها ورقة ، تخبره بجديد ما لقي النبي في الغار هتف ورقة : قدوس قدوس . وقال لخديجة . لئن كنتِ صدقتني ، لقد جاءه الناموس الاكبر . فقولي له فليثبت.

وراح ورقة يهتف بهذه الاشعار :

يا للرجال لصرف الدهر والقدر وما لشيء قضاه الله من غير

حتى خديجة تدعوني لاخبرها امراً اراه سيأتي الناس من أخر
فخبرتني بامر قد سمعت به فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بان احمد يأتيه فيخبره جبريل انك مبعوث الى البشر
فقلت علّ الذي ترجين ينجزه لك الاله فرجي الخير وانتظري
وارسليه الينا كي نسائله عن امره ما يرى في النوم والسهر
فقال حين اتانا منطقاً عجباً يقف منه اعالي الجلد والشعر
اني رأيت امين الله واجهني في صورة اكملت في اهيب الصور
ثم استمر فكان الخوف يذعرني مما يسلم من حولي من الشجر
فقلت ظني وما ادري ايصدقني ان سوف تبعث تتلو منزل السور
وسوف ابليك ان اعلنت دعوتهم من الجهاد بلا من ولا كدر

وفي صبيحة يوم من الايام الخالدة لمكة ، وكان قد هزّ مكة ، قول ورقة عن محمد : لقد جاءه الناموس الاكبر ، فاجتمعت قريش تصطخب حول الكعبة ، انطلق ورقة الى البيت الحرام ، يطلب محمداً . حتى اذا ما لقيه ، تعلق به ، وقال : يا ابن اخي اخبرني بما رأيت وسمعت ، فاخبرُه خبر ما رأى وسمع . فقال ورقة : والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الامة . ولتُكذّبَنَّه . ولتُؤذَيَنَّه . ولتُخرَجَنَّه . ولتُقاتَلَنَّه . ولئن انا ادركت ذلك اليوم

لأنصُرَنّ الله نصراً يعلمه ... ثم ادنى رأسه منـه فقبّل يا فوخه«١» .

وعاد ورقة بن نوفل الى داره ، اكثر ما يكون ايمانا بالله ، وشغفاً بالعمل في سبيل الله ؛ يمشي في دفقـة من نور ، تشع وتشع ، ثم تدسع وتدسع ، حتى تغمر ليس حاضره حسب ، بل وماضيه ايضاً ، فتجلو له اصحابـه الحنفاء في ثياب بيض على رأسهم زيد بن عمرو الذي كان يريده ثائراً على طريقته ، ويأبى ورقة — لما كان في صدره من معرفة ، وفي نفسه من ترقب لنبي ، لم يكن يعرف انه محمد بالذات — الا ان تكون ثورته كما كانت ، ثورة هادئة ؛ فينشرح صدره وتغتبط نفسه ؛ ثم تأخذه في لوعة وحنين وجفة من الذكرى لزيد ، ويروح يردد في لهفة وفي ارتياح ما كان قاله فيه يوم اتاهُ خبر قتله في حي لخم :

رشدت وانعمت بن عمرو وانما تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك اوثان الطواغي كما هيا
وادراكك الدين الذي قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فاصبحت في دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا

---

(١) مثلهن الاعلى . العلايلي . راجع سيرة ابن هشام ج١ ص ١٥٠-١٥٣

تلاقي خليل الله فيها ولم تكن   من الناس جباراً الى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه   ولو كان تحت الارض سبعين واديا

ولم يلبث ورقة ان اغمض عينيه في برد اليقين ، وطمأنينة النُّعمة ، ان رأى فجر تاريخ جديد سيصنعه العرب ، فيتناول الانسانية جمعاء .

وذُكر ورقة يوماً في حضرة النبي الرسول الاعظم العربي ، فقال :

لا تنالوا ورقة فانما كان له جنة او جنتان .

وهذا من عمل الايمان .

الايمان الذي لا يوفي عمل ثوري ، عنيفاً كان هذا العمل ام غير عنيف ، على الغاية ، الا ان يكون هو الباعث عليه ، والمفجر العزائم والقوى في سبيله .



مراجع الكتاب

الاعلام	الزركلي
دائرة المعارف الاسلامية	
صحيح البخاري	
عمدة القاريء	العيني
السيرة	ابن هشام
الاصابة	لابن حجر
العقد الفريد	
نهاية الارب	الالوسي
مثلهن الاعلى	العلايلي

بعض ما قيل في كتب « دار الحكمة »

١ – الثائرون في التاريخ –

قالت جريدة « الهدف » البيروتية في نشرتها الـ٢٨٥٧ المؤرخة في ١٨ آب سنة ١٩٥٥ بعنوان « أذينة والزباء » :

هذا الكتاب هو الحلقة الاولى من سلسلة « الثائرون في التاريخ » التي دأبت « دار الحكمة » على اصدارها .

وقد ازاحت هذه الدراسة القيمة غبـــارُ التاريخ عن شخصية عربية فـــذة فاذا اذينة ملك عظيم ، صادق الحس القومي ، عظيم المطامع بعيد النظر واذا به – وهـــذا هو الكشف الاهم – يستبق الاسلام في محاولة جريئة لتحرير القطرين (الشام والعراق) من حكم الفرس والروم .

والدراسة من وضع « دار الحكمة » التي يشرف عليها الاستاذ علي ناصر الدين .

* * *

وقالت جريدة « الحياة » البيروتية في نشرتها الـ ٢٨٩٠ المؤرخة في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٥٥ بعنوان «أذينة والزباء» :

قرأت اخيراً كتاب « أذينة والزباء » الصادر عن « دار

الحكمة للتأليف والترجمة » باشراف الاستاذ علي ناصر الدين، وهو الحلقة الاولى من سلسلة « الثائرون في التاريخ »

ولست اجد في تقريظ هذا الكتاب ، اجـــدى من تشويق القارىء العربي اليـه ، اذا شاء اجتلاء الذرى من تاريخنا ، وتاريخ الانسانية في سيرها المتصاعد ، على ايـدي الثوار و « صانعي التاريخ في انوار القمم لا في ظلمـــة المستنقعات ... »

ولا يسعني ههنا الا ان اشير باعجاب الى المقدمة البليغة التي صدر بها هذا الكتاب ، محددة الثورة بمعناها الصحيح البنّاء : ثورة العقل والفكر والنفس ، موضحة سبب وقوف التاريخ العربي موقف السيل المتحير ... ممهـدة خير تمهيد لموضوع الجزء الاول : الملك أذينة الثائر الاول في تاريخ العرب ، والملكة زنوبية ، الثائر الثاني ...

فبورك بهذه الانطلاقة المطمئنة في سبيل الوطن العربي، وبورك الذين ادركوا – عمليـــاً – ان العرب ، كانوا هم صانعي التاريخ الانساني في حقبة من الزمن مرت ، هـذا التاريخ الذي يتولى غيرنا ، صنعه اليوم في ديارنا !

ومما قالته جريدة اليقظة البغدادية في نشرتها المؤرخة في ٩ ايلول سنة ١٩٥٥ بعنوان « أذينة والزباء » باشراف الاستاذ علي ناصر الدين ؛ وبامضاء ابن الهيثم .

لا جرم ان هذا البحث يستلزم عناء شديداً ووقتاً طويلاً ، ذلك ان المؤرخين العرب لم يؤرخوا لاحد من العرب على اساس انه ثائر بكتاب مستقل ، شأنهم في ذلك شأن المؤرخين الاجانب ، ولذلك فان الامر يستوجب غربلة التاريخ وتسجيل احداث اولئك العرب الثائرين المنزهين عن الاغراض الذاتية والساعين لخدمة العروبة بكل غال ونفيس (فالثائرون في التاريخ هم وحدهم علة انقشاع الظلمة في كل ليل ، ومصدر سطوع النور في كل فجر وهم الذين كانوا وما يزالون يصححون اخطاء الوجود في سيره الابدي) .

وأذينة والزباء ملكا تدمر من الثائرين على العدوان . فقد دفع أذينة الاول نفوذ الرومان عن تدمر . ثم اعقب ذلك اخراج الرومان من شمالي سورية وقيام مملكة عربية مستقلة حرة . وبعد هذا جاء دور الزباء او زنوبيا في التاريخ وقد فصل الكتاب تاريخها تفصيلاً لا يمكن تلخيصه بمقال من غير الرجوع الى ذلك الكتاب والحقيقة ان هذا الكتاب

— وهو الحلقـــة الاولى من كتب « دار الحكمة » في الثائرين العرب — لا يمكن ان يقرأه الانسان ، ولا تمتلىء نفسه فخراً بتلك المرأة العربية التي قاتلت مع زوجهـــا الاستعمار الروماني . وحاربت الطغيان الفارسي بين سنة ٢٣٥م وسنة ٢٦٨م . وحينئذ يتجلى للعيان ان العرب قد جبلوا من طينة تأبى ان يدانيها رجس الاستعمار . وان ظهر بروتس وتزاويق .

* * *

٢ — قضية العرب —

وقالت جريدة « الحضارة » الشامية في نشرتها ال١١٦٠ المؤرخة في ٢٠ ايلول سنة ١٩٥٥ بعنوان « قضية العرب » وبامضاء « ابو يعرب » .

« قضية العرب » هو كتاب للاستاذ علي ناصر الدين ، اصدره في طبعته الثانية منذ ايام .

ولست ادري هنا ، في هذه الكلمة العجلى ، أأتحدث عن الكتاب ام أتحدث عن مؤلفه !

فللمجاهد العربي المؤمن علي ناصر الدين ، دَين في اعناقنا نحن شباب الامة العربية ، وله في نفوسنا حرمة ..

انه واحد من المفكرين العرب المؤمنين برسالة امتنا الخالدة ووحدتها وعبقريتها ، ممن يعدون على اصابع اليد الواحدة في كل دنيا العرب، اشعر بزهو وادلال وكبرياء قومية كلما قرأت لهم ! وكلمـــا اقرأ لاحدهم اجدني اردد في نفسي ولنفسي : نحن بخير !

فالاستاذ علي ناصر الدين هو شحنة قوية من الايمان العربي ، وتلك اظهر خصائصه ؛ وطبيعي ان يتجلى هذا الايمان الكبير في كل ما يصدر عن الرجل ؛ يخيل الي ان كتاباته ذوب عاطفة وعصارة روح.

وهذا الايمان بالعرب والعروبة ووحدة الامة العربية ، الذي يعمر نفسه ورأسه وقلبه وكيانه كله ، هو الذي يجعل من كتاباته قصائد حماسية او شيئاً كالملاحم !..

ومن هنا كانت – عنده – قوة الكلمة ، وروعة الافصاح ، وفحولة الاداء . ولا عجب فذلك انعكاس لايمانه بالذي يعتقد .

فقوة التعبير ، بكل ما فيها من حرارة ونصاعة ودوي ، تتناسب تناسبا طرديا مع الايمان بالدعوة ، وصدق البلاء في سبيل الفكرة .

وصاحب « قضية العرب » هو من الذين يعيشون فكرتهم ، وما اقلهم ، ومن الذين ينسجمون مع الدعوة ، ويجعلون من سلوكهم تعبيراً عمليا واقعياً عن العقيدة !

اما كتاب « قضية العرب » فهو الكتاب الذي اريده انجيلا لشباب العرب ؛ فهو يضعهم وجها لوجه امام وجودهم القومي ، ويلقي اضواء باهرة نافذة على كثير من المشكلات ، مشكلات الوجود العربي ، ويلقف كل ما افكت الشعوبية وبرع فيه الشعوبيون من افتراآت .

تقرؤه . فتجد قضية امتك العربيـــة دونك صورة ذهنية واضحة لا غموض فيها ولا نشاز ولا التواء ، وتخرج منه بالعديد من الحجج والاسانيد والمؤيدات التاريخية ، فتشعر بانك قـــد اهتديت الى نفسك ومعنى وجودك القومي وحقيقة امتك !

وشيء اخر في كتاب « قضية العرب » هو ان الاستاذ علي ناصر الدين ، لم يقتصر في مباحثه ، على بعث الايمان العربي . عن طريق استثارة النخوة القومية ، وتحريك العزائم الراكدة ، بالنداء تلو النداء ، وانما وضع حلولا ايجابية عملية لتحقيق الدولة العربية الجديدة ، واحياء التراث العربي ، وبالتالي لرسم الصورة الزاهية الجديدة لغدنا العربي الجديد .

وبعد ، فان كتاب « قضية العرب » الذي دعا فيه المجاهد المؤمن الصامت علي ناصر الدين ، الى التوحد القومي بين اجزاء الامة العربية ، هو غضبة للحق وغضبة للكرامة وثورة على الواقع العربي الشاذ !

* * *

وقالت جريدة « الهدف » البيروتية في نشرتها الـ ٢٨٥٧ المؤرخة في ١٨ اب سنة ١٩٥٥ بعنوان « قضية العرب »

ان الفرق شاسع بين وضعنا القومي ووضع الشعوب القوية المتطورة التي انصرفت لمعالجة مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية بعد ما تحررت من المشكلة القومية .

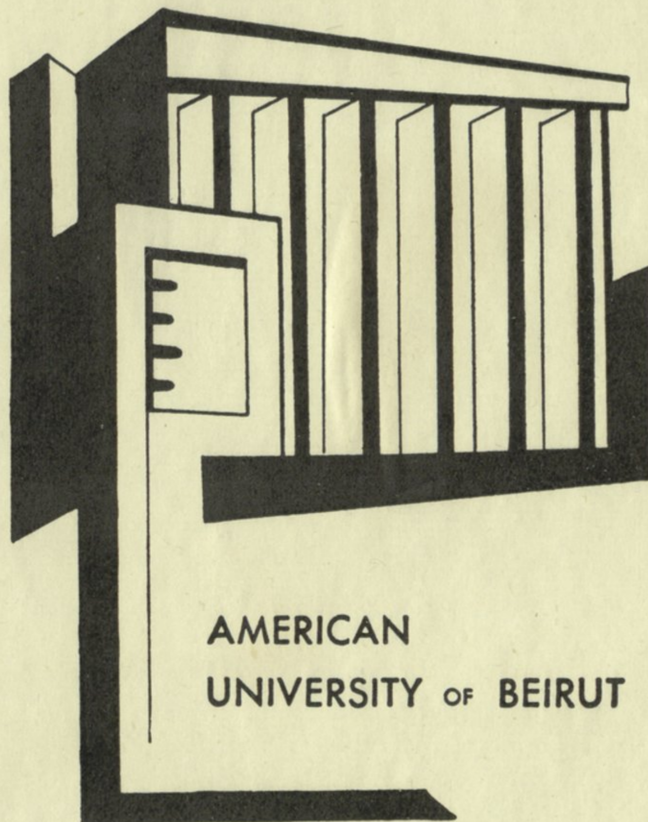
ففي بريطانيا مثلا يكتفي في تعريف البريطانيين بالقول انهم رعايا صاحبة الجلالة . وليس الحال كذلك عندنا فالمشكلة القومية لا تزال غير محلولة والرياح تهب عليها من كل ناحية وعلى هذا يظل العمل القومي في نظر الواعين مقدماً على كل عمل اخر .

والعاملون الصادقون للقضية العربية كثر على ان الذين يعالجون هذه القضية والكتابة فيها اقل من القليل .

ويعد الاستاذ علي ناصر الدين من اعرق والمع رجالات هذا الفريق الطليعة كما يعد واحداً من معلمي الفكرة العربية في التاريخ الحديث .

نقول هذا وبين ايدينا كتابه « قضية العرب » في طبعة ثانية فاخرة .

واذ كانت الفكرة العربية – وكل فكرة – انما تتميز وتتضح معالمها بالرد على الفكر الخصيمة والتصورات المشوهة فهذا ما فعله الاستاذ ناصر الدين بكل توفيق ونجاح . وقد احسنت «دار الحكمة» اذ استهلت نشاطها بهذا الكتاب القيم .


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT